الباب الخامس

فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية

انتقلت الجبهة من موسكو الى « أوفا » فى خريف عام ١٩٤١ م • وتقع « أوفا » — عاصمة جمهورية « البشكيريين » المتمتعة بالحكم الذاتى — على بعد ٢٠٠ كيلو متر تقريبا من موسكو •

وهى ليست من « المدن الأولى » التى استوطنها المهاجرون ، فقد هاجرت الدوائر الحكومية والهيئات الدبلوماسية الى « كويبيشيف » عند « الفولجا » ، ونقل جزء كبير من المصانع من غرب روسيا الى « نوفوزيبرسك » والى « كويبيشيف » فأصبحتا أثناء الحرب مركزا صناعيا هاما • ونقل قلم محفوظات العلوم الهامة ، واللوحات الفنية ، ذات القيمة الكبيرة ، وموجودات المتاحف فى بداية الحرب الى « تومسك » وكانت « ألما — أتا » و « طشقند » مركز المهاجرين من الفنانين والعلماء • وعلى العكس ، فقد ظلت « أوفا » على الهامش ، وربما كان هذا هو السبب فى هجرة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية اليها ، فقد فقدت الجبهة كثيرا من نفوذها وأهميتها فى الشهور الأولى للحرب ، عندما زحفت قوات الجيش الألمانى ، حتى وصلت « لينينجراد » ، وطوقت موسكو ، واحتلت الجزء الأكبر من « أوكرانيا » •

ولكن تغير وضعها فى أوائل عام ١٩٤٢ م ، فقد ردت القوات الألمانية عن موسكو ، فتراجعت الى الوراء ، ووقفت عاجزة أمام « لينينجراد » ، فكان هذا فترة تنفس للاتحاد السوفييتى ، سمحت له ، لا بتجنيد وتدريب قوات جديدة فحسب ، بل لتوجيه جهود مكثفة فى المجال السياسى أيضا • ولعب النشاط السياسى دورا كبيرا فى معسكرات الأسرى •

فقد عقدت فعلا اجتماعات فى نهاية عام ١٩٤١ فى معسكرات أسرى الحرب الذين أبدوا استعدادهم — عدد كبير منهم عن اقتناع حقيقى ، غير أنه أحيانا كان مجرد مجاراة للموقف — للتوقيع على النداءات ،

أنها كانت موجهة الى الشعب الألمـانى ضد هتلر (١) .

اشترك أعضاء جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى العمل السياسى فى معسكرات الأسرى . وقاموا بدور لا بأس به . اذن ، لم تهمل الجبهة منذ بداية الحرب ، فتشل عن العمل كلية ، بل بالعكس ، فقد أسند اليها واجبات منذ بداية عام ١٩٤٢ م .

جند لهذا العمل كثير من اللاجئين الذين كانوا قد رحلوا اجباريا فى خريف عام ١٩٤١ م كـ« أجانب غير موثوق فى ولائهم » .

لم يكن هذا واضحا لى ، عندما وصلت فى يوليو سنة ١٩٤٢ الى « أوفـا » . وظهر لى وجه المدينة كوجوه كل المدن السوفييتية أثناء الحرب :

الازدحام الشديد فى المحطات . جمهور الشعب يأد عليه التعب ، والانهاك ، والجوع . مهاجرون بؤساء .

* * *

« أوفـا » مدينة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية

تكمن ورقة صـغيرة — يتعلق بها كل شىء — فى جيبى الخلفى الداخلى ، المغلق بدبوس حتى لا تسقط فتضيع ، ويضيع معها كل شىء الآن . ففيها عنوان اللجنة المركزية لـ (M.O.P.R.) « رابطة التنظيم العالمى

---

(١) من بين النداءات الهامة ، التى وجهها أسرى الحرب فى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٤٣ م اعلان المؤتمر الأول الذى أصدره ٥٧٦ أسيرا رومانيا (٣٥ يناير) ، وموافقة ١٧٦ أسيرا ألمانيا على بيان الـ ١٨٥ (١٣ فبراير) ، ونداء من الأسرى الفنلنديين الى الشعب والجيش الفنلندى (١٨ فبراير) ، وقرارات المؤتمر الأول للأسرى المجريين (٢٢ نوفمبر) ، ونداء من ٨٦ أسيرا نمساويا الى الشعب النمسـاوى والى جنود الجيش الألمانى (٢٧ مارس) ، وموافقة من ١٣٩٣ أسيرا رومانيا على نداء الـ ٨٧٦ (٢٩ ابريل) .

وتبع ذلك فيما بعد احتجاج من ١١٥ أسيرا ألمانيا ضد الأعمال المشينة التى ترتكبها القوات الألمانية فى المناطق المحتلة فى الاتحاد السوفييتى (٤ يونيو) ، ونداء من ١٦١ أسيرا ايطاليا فى معسكر ٩٩ الى جنود الحملة على الاتحاد السوفييتى . والى كل الجنود فى الجيش الايطالى (٢٥ يونيو ١٩٤٢ م) .

لحماية المناضلين من أجل الثورة » تلك الهيئة التى ينبغى التوجه اليها أولا •

وبعد نصف ساعة تقريبا ، وجدت المبنى المكتوب على واجهته اللجنة المركزية لـ (M.O.P.R.) « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » ••• نظرت الى احدى السكرتيرات نظرة ارتياب وشك • اذ يبدو أن هيئتى ، بعد سنة فى « كازاخستان » كانت تدعو الى الارتياب •

ـ « أنا آت من « كاراجندا » بناء على استدعاء من هنا ، وأريد تبليغ الرفيق رئيس المنظمة بحضورى » •

تغيرت نظرة السكرتيرة الى احترام وتقدير ، ويبدو أنى لم أكن أول من استدعى من « كاراجندا » أو من « سيبيريا » •

ـ « نعم أيها الرفيق ! انتظر لحظة من فضلك ! » •

وبعد نصف ساعة ، مثلت أمام رئيس اللجنة المركزية للرابطة فوجدت أمامه على المكتب بعض الأوراق ، من المحتمل أنها تقارير عنى • نظر الى ، ثم الى الأوراق الموضوعة أمامه ، التى كتب فيها شىء عن حياتى السابقة • ورغم هذا فقد طلب منى الادلاء باسمى ، ومحل ميلادى ، وتاريخ الميلاد ، وتاريخ دخولى الاتحاد السوفييتى ، وتاريخ التحاقى بمنظمة الشباب •

ثم سألنى فجأة :

« كيف سارت معك الأيام فى « كزاخستان » ؟

فأجبت دون تردد :

« جيد جدا ، فقد اعترضتنى بعض الصعاب فى الأسابيع الأولى ، ولكنى بدأت دراستى فعلا فى نوفمبر ، والحياة فى « كاراجندا » مشوقة جدا ، ولقد تعلمت أشياء كثيرة » •

قلت الحقيقة ، فلقد تربيت على ملاحظة الجانب الحسن فى الاتحاد السوفييتى ، ونسيان الجانب السىء ، وتمكنت هذه العادة منى تمكن دمى ولحمى • ـ فلم يزل فى ذاكرتى حتى الآن ، أن الحياة فى « كاراجندا » كانت جميلة ومفيدة •

يبدو أن الاجابة قد أعجبته ، فسألنى والسرور يعلو قسمات وجهه :

ـ « حسنا ! أنت أول من يقول هذا ، فنحن لا نسمع سوى

الشكوى • انه لجميل حقا ، اذا نظر المرء الى الأمور نظرة تفاؤل » •

ثم بدت علامات الجد على وجهه ، فشعرت أننا دخلنا فى الموضوع :

« أيها الرفيق « ليونهارد » ! لقد استدعتك الى هنا جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ونحن هنا مكان الاستقبال » •

ثم أخذ ورقة ، وكتب عليها اسما وعنوانا ثم ناولها لى فقرأت عليها : « أليزا لينينا — ٧ فيلكوف » •

— « الجبهة الآن فى مقر الجوالة السابق ، فاذا لم تعثر عليه بسرعة ، فتستطيع أن تسأل عن « منزل الجوالة » فكل واحد فى « أوفا » يعرفه » •

انتصب قائما ، فانتهت المقابلة ، ثم أخذت طريقى الى هناك مباشرة • كنت مشدود الأعصاب بشكل لا يتصور ، فلا زلت جاهلا كل شىء عن « فيلكوف » ، من يكون ؟ ولكن يبدو مؤكدا أن له نفوذا كبيرا ، لأنه استطاع أن يستدعى لاجئا ألمانيا منفيا ، من « كازلخستان » ، ويزيح من أمامه كل حواجز الطرق ، حتى يصل الى « أوفا » •

وفى الطريق من « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » الى « فيلكوف » الكبير ، المجهول ، دارت بذهنى أفكار مختلفة ، هل سأكلف بعمل سياسى ؟ ربما فى الاذاعة أو فى معسكر أسرى الحرب ؟ ولكن لو كان هذا هو السبب ، لاستطاعوا شرحه لى فى خطاب • من المحتمل — هكذا ظننت — أن الأمر يتعلق باستدعاء للخدمة العسكرية ، وربما يكون القصد تكوين فرقة عالمية ؟

وفى أثناء هذا وصلت الى المبنى المكتوب عنوانه على الورقة ، لقد كان بالنسبة الى « أوفا » مبنى ضخما ، أقيم على ذلك النمط ، الذى كان طابعا خاصا لقصور الجوالة ، التى أقيمت فى بداية الثلاثينات •

كانت هناك حديقة صغيرة أمام المنزل ، وتنتصب عمد ضخمة فى مدخله ، وغطيت بوابته الكبرى بطبقة من المعدن ، ولا توجد يافطة عليه ، وليس هناك شىء على واجهته ، يشير الى أن اللجنة المركزية لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية موجودة هنا •

دخلت متهيبا ، فقابلت فى الصالة أحد أصدقائى القدامى ، الذين كانوا معى فى بيت الأطفال رقم ٦ ، وهو « أرنست آبلت » ابن أحد الأعضاء القياديين فى الحزب الشيوعى •

اندفعت اليه :

ـ« أرنست ! ماذا تعمل هنا » ؟

ـ « أردت أن أوجه اليك نفس السؤال » .

حكيت له باختصار عن ترحيلى الاجبارى الى « كاراجندا » ، والتلغراف المفاجىء باستدعائى الى « أوفا » .

بدا لى أن « أرنست آبلت » يعرف أشياء أكثر ، ربما أستطيع أن أستعلم منه عن بعض الأشياء :

ـ « أخبرنى ! من يكون « فيلكوف » هذا » ؟

نظر الى مستغربا :

ـ« انسان ! ألا تعرفه ؟ « فيلكوف » : هو الرئيس العسكرى لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » .

ـ « نعم ! علام يدل استدعائى المفاجىء الى « أوفا » ؟ هل سأجند فى جيش خاص ؟ والا ! فعلام يدل هذا » ؟

ـ « جيش ؟ لا ! أنا لا أعتقد ذلك . من المحتمل أن تلتحق بمدرسة ، اذ يوجد هنا عدد كبير ، وربما تلتحق بمدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ... وهى الأحسن » .

وفجأة صاح صوت بلهجة نمساوية :

ـ« أرنست آبلت » ! تعال ! انهم فى انتظارك » .

فودعنى « أرنست آبلت » ومضى ، كان من الممكن أن أحصل منه على معلومات أكثر ، لو لم يستدعيه صاحب هذا الصوت .

عندما أخبرت سكرتيرة « فيلكوف » بوصولى ، بادرت بالسؤال ـ مباشرة عقب تقديم نفسى لها ـ عما اذا كنت جائعا ؟ تعجبت ! اذ لم يسألنى أحد مثل هذا السؤال منذ عام . ودون أن تنتظر جوابا منى ، أعطتنى تذكرة صغيرة .

وقفت مندهشا فى الدور الأرضى أمام عتبة صالة مطعم جميل . ولم أكد أجلس حتى أسرعت الى احدى الخادمات ، فتناولت التذكرة الصغيرة منى . ثم أحضرت شوربة ، وخبزا أبيض ، وكمية كبيرة من الطعام واللحم ، وأخيرا حلويات .

كانت هذه أول وجبة ، يقدم لى فيها أصناف متعددة منذ بدء الحرب . وبعد انتهائى من تناول الطعام ، أسندت ظهرى على مسند المقعد ، فشعرت بارتياح ، لم أشعر به منذ مدة طويلة .

جاءت الخادمة مرة أخرى ، وقالت :

ـ « هل تريد شيئا آخر » ؟

فقدت كلمات اللغة من هول المفاجأة ، فى أثناء الحرب ؟ وبعد هذه الأصناف المتعددة من الطعام ؟ .. ثم سألتها :

ـ « هل يجوز طلب شىء آخر » ؟

ـ « نعم ! طبعا ! تذهب ببساطة الى المحصلة ، وتطلب منها تذكرة أخرى ، وفى هذه الأثناء أكون قد انتهيت من اعداد الصينية الثانية لك » .

أعطتنى المحصلة تذكرة ثانية ، دون ابداء أى ملاحظة ، ثم سألتنى مبتسمة : « هل جئت أيضا من « كازاخستان » ؟ .

وبعد الانتهاء من الأكل ، ذهبت الى حجرة السكرتيرة ، فانتظرت بضع دقائق حتى موعد مقابلتى « فيلكوف » . رأيته رجلا طويلا ، تظهر علامات الجد والحزم على وجهه ، كان الحديث قصيرا ، بدأ أولا بالأسئلة العادية ، التى أجبت عليها بسرعة ، ومنها علمت أنه يعرف كل شىء عنى ، وبالتالى عرف هو ، أنى أدرك أن كل ما يتعلق بى أمامه على الورق . ثم قال « فيلكوف » ضاغطا على مخارج الحروف :

« نحن فكرنا فى اعطائك فرصة التعليم فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وسيسافر بعض الرفقاء فى الأيام التالية . ونرى أن من الأصوب أن تمر على السكرتيرة كل يوم ، فسوف تخبرك بموعد السفر ، وستقيم فى هذه الأثناء فى « أوفا » . وستدبر السكرتيرة سكنا لك » .

فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟ لا أستطيع أن أصدق هـذا !

ولم أدرك الا بعد خروجى ، أن « فيلكوف » لم يقل لى : أين مقر المدرسة ؟ ولم يزعجنى آنذاك أننى لم أعرف الا الخطوط الرئيسية ، فقد أدركت بمرور الوقت أن ذلك لم يرجع لطبيعة « فيلكوف » الشخصية ، بل كان ذلك طابع نظام « البيروقراطية » السوفييتية .

قالت السكرتيرة :

« أيها الرفيق « ليونهارد » ! هاهو ذا عنوان سكنك المؤقت ، وسوف يوصلك الآن الرفيق السائق الى هناك ، ويحضرك من سكنك الى هنا كل يوم فى تمام الساعة العاشرة صباحا ، وسأخبرك بميعاد السفر ، عندما يحين الوقت » .

وأثناء نزولى على السلم ، فكرت فى الكفاح الطويل المرير ، الذى قمت به فى « كاراجندا » للحصول على تصريح الاقامة ، حتى يصبح لى الحق فى الاقامة فى مسكن الطلبة . كيف تسير الأمور هنا بهذه الليونة والسرعة ! كنت مندهشا .

خرجت من الباب ولا زلت فى ذهول ، بل اشتد ذهولى ، فالعربة واقفة على استعداد لتوصيلى ، وأى نوع من العربات ! ليست العربة العادية (Emmotschaka) (هكذا يسمون فى الاتحاد السوفييتى العربة الصغيرة (M-I) ، التى يستعملها أعضاء الطبقة المتوسطة فى قيادة الحزب) بل العربة الكبيرة الجميلة (SIS) عربة القياديين من أعضاء الحزب البارزين . فتح السائق الباب ، وسألنى عن العنوان ، ثم انطلق .

وبعد عشر دقائق ، وقفنا أمام مبنى جميل وجديد ، لم يوجد اسم واحد على أى باب من أبواب الشقق ، بل أرقام فقط . وجدت مسكنى فى الطابق الثانى ، ضغطت على الجرس ، ولم أصدق عينى ، اذ تقف أمامى « جريتى لوبرباور » فتاة نمساوية ، كانت معنا فى بيت الأطفال رقم ٦ ، ولم أرها منذ أكثر من عامين .

— « نهارك سعيد يا « جريتى » انه لرائع حقا ، أن أراك مرة أخرى » .

— « نهارك سعيد » .

قالتها بعدم اكتراث ، فغاصت فرحتى ، ثم بدأت أقص لها عن « كازاخستان » وما فعلته فى هذه الساعات القليلة فى « أوفا » .

وفى هذه الأثناء ، انضم الينا نمساوى آخر من رابطة الدفاع ، حيانى دون أن يذكر اسمه ، ثم قادنى الى الحجرة . كان فى كل حجرة سرير ، وخوان صغير بجانبه . هذا هو كل الأثاث فى كل الحجرات ، وظهر لى أن هذا المسكن مؤثث فقط للرفقاء الذين يضطرون للاقامة فى « أوفا » وقتا قصيرا .

عاودت سرد قصتى مرة أخرى ، ولكن « جريتى لوبرباور » التى عرفتها فتاة مرحة ، ظلت صامتة ، تومىء برأسها فقط بين الحين والآخر . بدأت أدرك فى هذه اللحظة ، فقلت لها :

« الآن ! ماذا فعلت بك الأيام ؟ وماذا تعملين ؟ وما هى مشروعاتك فى المستقبل » ؟

ظلت صامتة ، ثم قالت محاولة التهرب من الاجابة :

ـ « لا أعرف بالضبط » .

ثم عاد النمساوى مرة ثانية ، وقالت لى بلهجة صارمة :

ـ « لا ينبغى أن تتحدث كثيرا » .

فأمسكت عن الكلام خجلا .

كان لقائى بعد قضاء مدة طويلة فى « كازاخستان » مفرحا ، ولكن سرعان ما أصبت بخيبة أمل ، فالشاب « آبليت » لم يمكث معى سوى بضع دقائق ، وتركنى مسرعا الى من دعاه ، والفتاة المرحة « جريتى » قابلتنى ببرود . وصمت عن الكلام .

تأسفت جدا ، الى أن فهمت أن الحياة الحالية لأصدقائى تختلفه عن أسلوب حياتى الماضية حتى الآن . ومما لا شك فيه ـ هكذا علمت بصفتى طالبا ، وعضو فى منظمة الشباب ـ أن هناك كثيرا من المجالات ، لا يجوز الحديث عنها ، ولكن ـ على الأقل ـ استطعت أن أتحدث عن كل شىء خارج عن المواضيع المحرم الحديث فيها .

ولكنى أدركت شيئا فشيئا ، أن هناك مقاييس أخرى . ربما تكون المجالات المحرم الحديث فيها أكثر اتساعا هنا .

يمكن للمرء أن يصف « أوفا » فى ذلك الوقت بأنها « مدينة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » ، فقد كانت الجبهة هى المنظمة الكبرى الوحيدة التى هاجرت اليها .

استولى زعماء الجبهة على فندق (Baschkirija) وهو أكبر وأحدث فندق فى المدينة ، ففيه يقيم « دولوريس ابارورى » ، سكرتير عام الحزب الشيوعى الأسبانى ، و « فيلهلم بيك » . و « فالتر أولبريخت » من زعماء الحزب الشيوعى الألمانى ، و « كوبلينيج » و « فورنبيرج » و « فيشر » من زعماء الحزب الشيوعى النمساوى . و « اندريه مارتى » ادى كان لايزال فى القمة آنذاك ، و « آنا بانكر » التى كانت فى ذلك الوقت زعيمة الحزب الشيوعى الرومانى ، كذلك « مانويلسكى » و « فيلكوف » من الحزب الروسى ، وكانا يتوليان القيادة العامة للقسم السياسى والادارى فى هذه الجبهة .

ونادرا ما كان يحضر « ديمتروف » ـ الذى كان آنذاك السكرتير العام للجبهة ـ الى « أوفا » لزيارة قصيرة . وكان زعماء الجبهة

الآخرون فى رحلات مستمرة ؛ مرة الى « كويبيشيف » ؛ حيث توجد الهيئات الحكومية ، والاذاعة ، وأخرى الى مدارس الحزب المنتشرة فى كل أجزاء الدولة ؛ وثالثة الى معسكرات أسرى الحرب ، حيث ينظمون الاجتماعات ، وينفذون البرنامج المرسوم لهم ، للاستفادة من الأسرى فى الدعاية ؛ وللتأثير عليهم أيديولوجيا •

وأخلى بجانب فندق (Baschkirija) الذى كان قصر الجواله سابقا ، ثم اتخذ مقرا للجبهة حاليا — مبنيان كبيران آخران للجبهة ، وهما أضخم مبنيان فى « أوفا » واستخدم مبنى الهندسة الجيولوجية فى شارع « لينين » سكنا للطبقة المتوسطة من زعماء الجبهة ، ولأسر زعماء القمة فى الجبهة •

كذلك اتخذ مبنى مدرسة الزراعة آنذاك فى شارع « لينين » — ولم يكن جميلا مثل مبنى الهندسة الجيولوجية ، فضلا عن المقارنة بينه وبين الفندق — سكنا لأسر الطبقة المتوسطة فى سلم زعماء الجبهة ، ويسكن فيه أيضا مجموعة من العاملين فى الجبهة ذى المرتبة الدنيا : المرضى من المناضلين فى أسبانيا ، الذين لم يعد ينتفع بهم فى العمل السياسى ، وأسر هؤلاء الرفقاء الذين كانوا يعملون فى هذه الأثناء فى مدارس مختلفة ، أو يقومون بأعمال سرية خلف القوات الألمانية ، والخدم ، وعمال المطابخ فى أجهزة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

وأقام أيضا فى هذا المبنى أولئك الذين استدعوا من « كازاخستان » أو من « سيبيريا » للعمل السياسى ، وكذلك الذين يبدو أنهم — لسبب أو لآخر — غير مناسبين لأى عمل •

ولم يكن معظم سكان هذا المنزل على اتصال بالجبهة من قبل ، وكانوا أيضا أكثر بعدا عن (M.O.P.R.) « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » ، التى تعيش الجبهة الآن تحت رعايتها وحمايتها •

وكما وزع هؤلاء الناس على أماكن السكن طبقا لطبقاتهم الحزبية ، وظهر الفرق واضحا بين طبقة وأخرى ، كذلك اختلفت معاملتهم بالنسبة للخدمات الأخرى • فكل الأعضاء الذين كان نشاطهم داخل الجبهة فى المقر الرئيسى كانوا يحصلون على ثلاث وجبات يوميا فى مبنى العمل وهو قصر الجوالة السابق • والزعماء الكبار الذين كانوا يقيمون فى الفندق الجميل (Baschkirija) كانوا يحصلون بالاضافة الى الوجبات

الثلاثة ، على طرد كبير ، ملىء بأصناف الفواكه والحلوى ، ويرسل الى محل اقامتهم .

أما الباقون من أعضاء الجبهة فيحصلون على ما يحتاجون اليه من أغذية ، من محل خاص بهم ، يوجد فى الدور الأرضى لفندق (Baschkirija) ويحصلون على الوجبات الثلاث ، وعلى مقدار ما يأخذه عامل فى بطاقة التموين . وبين الحين والحين يوزع عليهم بعض المأكولات الخاصة .

كان هذا وضع العاملين فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، كل على حسب قيمة ما يقدمه فى العمل السياسى ، نظام التقسيم الى طبقات فى كل شىء فى السكن ، والأكل .. الخ . طبقة تعلو الأخرى حتى القمة .

* * *

الرحلة العجيبة فى القارب البخارى

مكثت فى « أوفا » أسبوعا تقريبا ، وعشت لأول مرة حياة خالية من الهموم ، فتأخذنى السيارة فى الصباح ، ثم أمر على السكرتيرة فى الساعة العاشرة ، لأعلمها بحضورى ، فتواسينى بكلمة ، لعدم حلول وقت السفر بعد ، مؤكدة على أن أعود اليها فى اليوم التالى . وأتناول يوميا وجبات متنوعة الأصناف . أقيم فى حجرة جميلة ، ولا أقوم بأى عمل اطلاقا .

قابلت من وقت لآخر أصدقاء من رابطة الدفاع ، أو من القسم النمساوى فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية . كانوا كلهم فى تصرفاتهم مثل تصرف « جريتى » ، لم يذكروا كلمة واحدة عما فعلوه هنا ، ولا عن المكان الذى جاءوا منه ، ولا عما سيفعلونه بعد ذلك .

حاولت أن أتصرف مثلهم ، ولكن لم أنجح ، فقد كنت طالبا مدة طويلة ، وقاسيت كثيرا فى « كاراجندا » ، وكنت مسرورا لرؤية أصدقائى مرة أخرى ، ولكنى فى نفس الوقت ، كنت حديثا « فى الجهاز » فتصرفت عاديا رغم كل الاحتياطات .

وبعد أسبوع أخبرتنى السكرتيرة أننى سأسافر فى اليوم التالى مع رفيقين آخرين الى المدرسة ، وينبغى أن أكون فى مكتبها فى الساعة العاشرة صباحا .

وصلت الى هناك فى الساعة العاشرة تماما ، وكان فى الحجرة اثنان غيرى ، ولكنها اتجهت الى أحدهما فقط ، وقالت له :

« نحن نرى أن من الأحسن أن تسافر اليوم الى المدرسة مع هذين الرفيقين ، وهاهى ذى التذاكر » .

أعطتنى مظروفا مغلقا ، ثم مد الاثنان الآخران أيديهما الى ، فسلمت عليهما . ولكن لم يذكرا اسميهما ، فلم أهتم بذلك .

قالت السكرتيرة : « وصلت العربة ، تستطيعون السفر الآن ، أنمنى لكم رحلة طيبة » .

قادنا أكبرهما سنا الى عربة جميلة ماركة (SLS) ، ثم قال للسائق كلاما ، عرفت أنه اسم ميناء . وبعد ربع ساعة وصلنا الى ميناء على نهر « بيـــلايا » .

ثم قال لنا : « سنسافر بهذا المركب البخـــارى » .

انطلق بنا المركب بعد دقائق قليلة .. كنت قبل عشرة أيام فى « كازاخستان » ، والآن أجلس هنا فوق هذا المركب البخارى ، مع اثنين تعرفت عليهما قبل وقت قصير ، ولم أعرف اسميهما حتى الآن .

مر الوقت ، ولم يتكلم الزميلان الا قليلا ، والآن ! شبعت من المواقف المحرجة ، فكففت عن الأحاديث التى تلطف الجو ، وتدخل علينا السرور .

« جو جميل ! أليس كذلك » ؟ سأل مرافقنا ، فأجبته : « نعم » . يجوز لى على الأقل أن أرد بهذه الكلمة .

يبدو أن معظم المسافرين على المركب من الطبقة الفقيرة . واتخذنا مقاعدنا بعيدا عنهم فى ركن ناء من المركب .

ثم نودى على المحطة القادمة « بالجوفيشتشنسك » . مر على سفرنا الآن اثنان أو ثلاث ساعات ، وقد نزل كثير من المســافرين ، فنظرت الى رفيقى متسائلا ، فهز رأسه .

فواصلنا السفر وبعد ست ساعات توقفت المركب مرة أخرى ونودى اسم المحطة بصوت عال « كوشنارينكوفو » فقطب قائدنا جبينه . يظهر أنه لم يعجبه النداء باسم المحطات ، ولكنه لم يكن يستطيع تغيير شىء من هذا .

ثم قال : « أعتقد أنه يجب علينا الاستعداد للنزول » فتناولنا حقائبنا صامتين . نزلنا متعبين من طول الرحلة ، ولكنى كنت مشدود الانتباه لمـــا سيحدث بعد ذلك .

لم أستطع معرفة ما يدور بذهن الاثنين الآخرين ، اذ لم يقولوا شيئا ، وكذلك لم يظهر على وجوههم أى تغيير ، يستطيع المرء أن

يستنبط منه أية اشارة الى ما فى أفكارهم • لم تكن هناك عربة فى هذه المرة ، ربما لزيادةالتكتم ، ولم نذهب بحقائبنا فى اتجاه المساكن ، بل فى الاتجاه الآخر •

تقع القرية الصغيرة « كوشنارينكوغو » — كما علمت فيما بعد — على بعد ٦٠ كيلو متر • شمال غرب « أوفا » ولا يوجد خط حديدى يمر عليها ، بل المواصلة الوحيدة فى الصيف ، هى المراكب البخارية ، وفى الشتاء يصل الناس اليها بالمركبات المتزحلقة على الجليد • ومما لا شك فيه أنه مكان مثالى لمدرسة سياسية ، حيث لا يلحظ وجودها أحد ، ويقطع كل اتصال بين تلاميذها وبين العالم الخارجى •

وبعد نصف ساعة تقريبا سيرا على الأقدام وقفنا أمام مرتفع ، فقال المرافق : « سنتسلق هذا الجبل » •

فتسلقناه صامتين ، ولم نتبين حتى الآن شيئا ، فلا توجد مستعمرة ، ولا عزبة ، ولا منزل •

* * *

مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية

فى « كوشنارينكوفو »

وبعد ربع ساعة آخر رأينا بعض المنازل الكبيرة ، بدت عليها القذارة والاهمال ، يبدو أنها كانت فى السابق « دورا » لأحد الاقطاعيين • ورأينا بجانب المبنى الكبير منزلين أو ثلاثة ، ويتوسطها ميدان كبير ، احتقرت المكان ، لأنى وجدته أقل مما كنت أتخيله كمقر لمدرسة الجبهة •

اعتقدت فى بادىء الأمر ، أننا لم نصل بعد الى المدرسة ، ولكن مرافقنا قال : « سنذهب الى هذا المكان » وأشار الى المبنى الرئيسى • وأمام المدخل سمعنا آخر أوامره : « لن يكون سيئا أن نثبت حضورنا فى السكرتارية » • فتوجهنا صامتين الى الدور الأول •

تركنا واقفين ودخل الى السكرتارية ، ثم عاد الينا بعد دقائق ، فاشار الى الرفيق الآخر بالدخول ، ووقفت أنا منتظرا خارج السكرتارية ، وبعد دقائق خرج وأعطانى اشارة فهمت منها أن قد حل دورى •

قابلتنى سكرتيرة فى الداخل ، فتكررت تمثيلية الأسئلة والأجوبة المعروفة ، وبعد هذا التمهيد الممل ، نظرت الى نظرة حادة ثم قالت :

ـ « عندنا فى المدرسة نظام معين :

أولا : لا يجوز لك مغادرة منطقة المدرسة دون تصريح ، وأحب أن ألفت انتباهك الى أن من لم يراع هذا النظام يقع تحت عقاب صارم .

ثانيـــا : من المسلم به ، أنه لا يجوز لك أن تشير أدنى اشارة فى خطاباتك الى المكان الذى تقيم فيه هنا ، فلا يجوز كتابة اسم مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، لا فى الخطاب ، ولا على الظرف من الخارج تحت اسم المرسل » .

لم أسمع حتى بمثل هذه الأشياء ، فقد كنت طالبا ساذجا .

قلت لها : « نعم ! ولكن ماذا أكتب على الظرف ، أعنى عنوان المرسل » ؟

فقالت : تكتب :

(Baschkirische ASSR. Kuschnarenkowo Landwirtschaftliches Technicum Nr. 101).

وهذا يكفى .

توقفت قليلا ، ونظرت الى نظرة فاحصة ، ثم واصلت حديثها :

« وأهم شىء الآن : ليس مسموحا لك بأن تقول اسمك الحقيقى لأى انسان ، ولا تحكى أى شىء ـــ مهما قل ـــ عن حياتك السابقة ، وأحب أن ألفت انتباهك الى أن المحافظة على هذه القاعدة ضرورى جدا ، فلا يجوز لأحد ـــ حتى أولئك الذين يعرفونك من قبل ـــ أن يناديك باسمك الحقيقى » .

وتوقفت مرة أخرى عن الكلام ، ثم سألت بلهجة أقل صرامة :

« والآن .. ما هو الاسم الجديد ، الذى تريد أن تنادى به هنا » ؟

فقلت : « ليندين » .

كتبت الاسم ، ثم قالت :

« حسنا ! فأنت من اليوم « ليندين » فانسى اسمك الحقيقى ، وتذكر دائما أنك تدعى « ليندين » طول مدة اقامتك فى المدرسة . هذا هو كل ما عندى ، وتستطيع الآن أن تذهب لتناول طعامك ، وسأريك بعد الأكل مكان النوم ، وفى الصباح الباكر ستقابل المدير ، وسيقول لك التعليمات الأخرى » .

عندما دخلت المطعم ، لم أر أحدا . كان الطعام جيدا ، ولكن لم تعد جودة الطعام تثير انتباهى « ما أسرع ما يتعود المرء على كل شىء جديد » فكرت فى هذا عندما فتح الباب ، ودلف منه صديق قديم . هو « جان فوجيلر » اندفع الى فرحا : « رائع ! أن تكون هنا » !

كان « جان » زميلى فى الفصل فى مدرسة « ليبكنيشت » فى موسكو ، وكنت أميل اليه كثيرا • وهو ابن الرسام الألمانى « هاينريش فوجيلر » من (Worpswed) وكان يعيش منفيا فى الاتحاد السوفييتى ، ورحل معى فى خريف عام ١٩٤١ الى « كازاخستان » ، ومات فى أوائل عام ١٩٤٢ م من قسوة الحياة ، فقرا ، وجوعا ، وبردا •

مضى على موته أكثر من نصف عام ، وهاهو ذا ابنه ، ومما لا شك فيه أنه علم بموت أبيه منذ مدة طويلة ، ولكن يبدو ظاهريا أن هذا الحدث لم يغير من موقفه السياسى شيئا على الاطلاق • وكان هذا هو وضع كثير من الشبان فى الاتحاد السوفييتى • كان « جان » عضوا متحمسا فى منظمة الشباب ، وكان يتحدث بحماس بالغ عن الاتحاد السوفييتى •

وبعد التحيات مباشرة بدأ يحكى :

« هل تعلم ، أين كنت ؟ لا ! فلن تستطيع تخيل هذ » •

ولم يمكنى من التفوه بكلمة واحدة ، فقد استمر فى حديثه :

« كنت فى الجبهة ، ولم أعد الا قبل وقت قصير • وقد سمح لعدد قليل من الألمانيين بالذهاب الى هناك ، وكيفما كان الأمر ، فقد كنت محظوظا ••• كنت مترجما ، ترجمت مرة للمارشال « شوكوف » • أتدرى أن « شوكوف » خرافى مدهش » •

ثم حكى عن الجبهة ، وكنت أسمع منه مرارا وتكرارا : « شوكوف •• شوكوف •• شوكوف •• » •

لم يكن هذا مفاجئا لى ، فقد سمعت كثيرا فى « كازاخستان » عن الاعجاب بـ« شوكوف » •

يتمتع « شوكوف » بشعبية حقيقية — لا مصطنعة ، ولا نتيجة نفاق — بين الجيش والشباب ، وربما كان هذا هو أحد الأسباب التى دفعت « ستالين » الى عزله فى نهاية عام ١٩٤٦ م •

أنصت الى « جان » باهتمام ، ولكنى كنت أتحين الفرصة ، لتحويل حديثه الى المدرسة ، آملا أن أعرف منه شيئا عنها •

ولكنه تحول من نفسه بأسرع مما تصورت ، وفجأة حك شعره بأصابعه ثم قال :

« آه ! لا يجوز لى أن أحكى شيئا عن حياتى الماضية ، أرجوك !

لا تخبر أحدا بما .... وعلى فكرة . ما اسمك هنا ، حتى لا أخطىء ، فى هذا أيضا » ؟

ـ « اسمى : « ليندين » وأنت » ؟

ـ « دانيلوف : .. جان دانيلوف » .

غريب حقا ! فبمجرد أن ناديته باسمه الحركى ، تحول الى شخص آخر . شخص حذر ، ومراوغ فى الاجابة على سؤالى .

ـ « المدرسة ؟ نعم ! ماذا ينبغى أن أقول ! نحن مقسمون الى مجموعات حسب جنسية الدارسين ، وتوجد محاضرات عامة للجميع ، ثم دروس فى حلقات منفصلة لكل قسم ، ويقود المجموعة الألمانية « كلاسنير » هذا هو اسمه فى المدرسة ، أما اسمه الحقيقى فلا أعرفه بالضبط » .

ـ « هل يوجد هنا زملاء آخرون ممن كانوا معنا فى بيت الأطفال رقم ٦ ، أو فى مدرسة « كارل ليبكنيشت » ؟

ـ « هيه ! هيه ! : ماذا أقول ؟ أوه ! سوف ترى بنفسك » .

تحول فى ثوان من عضو متحمس فى منظمة الشباب ، الى عضو قيادى فى الحزب ، غارق فى المسئوليات ، ويزن كلماته قبل أن يتلفظ بها .

وبعد لحظة دخلت السكرتيرة الى صالة المطعم وقالت :

« أيها الرفيق « ليندين » أريد أن أريك الآن الحجرة التى ستنام فيها » .

عرفتنى أولا على الدور الأرضى ، حيث توجد حجرات الدروس ، والحلقات الدراسية المنفصلة لكل مجموعة .

وكان فى آخر الدور الأرضى سلم خشبى قديم ، يحدث أصواتا تحت الصاعدين والنازلين ، ثم ممر ضيق . أشارت السكرتيرة الى أحد الأبواب قائلة :

« هنا المكتبة ، وصالة الاطلاع » . ثم توقفت أمام الباب الأخير : « هاهى ذى » .

رأيت حجرة كبيرة بها ١٥ سريرا تقريبا ، وبجانب كل سرير خوان صغير ، وفى الوسط منضدة كبيرة . لقد كان الوضع بالضبط كما كان فى حجرة النوم فى معهد المعلمين فى « كاراجندا » ، ويختلف عنه فى أننا كنا هناك فى مبنى جديد ، وهنا فى « دورا » قديم .

خاب ظنى ! فبعد الذى رأيته فى « أوفا » تخيلت أن المدرسة ستكون فى وضع أحسن مما أراه الآن أمامى •

قادتنى السكرتيرة الى سرير خشبى بدائى وقالت :

« هذا مكانك • ائت الى من فضلك غدا ؛ لأقدمك الى المدير » !

والآن ! جلست مندهشا ، حائرا ؛ أفكر فى كل الأحداث التى مررت بها فى الأيام الأخيرة ، وانتظرت بأعصاب مشدودة ، لارى ماذا تقدمه لى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

وبعد دقائق قليلة ، دخلت أول مجموعة من زملائى فى حجرة النوم ، كانوا أسبانيين ، حيونى بايماءة رأس ، ثم جاء الى أحدهم وقال :

« أسبانى » ؟ فقلت : « لا ! ألمـانى » وفى هذه اللحظة شعرت بالخوف ، فلربما قلت أكثر مما يجوز لى • سررت بالسكن مع أسبانيين ، لأنه كان لى أصدقاء أسبانيون فى موسكو ؛ وأعجبنى جو اللاجئين الأسبانيين أحسن من جو الألمـانيين •

وفجأة اكتشفت وجود صديق حميم هو « ميشا فولف » فهو من أصدقائى فى موسكو ، وقابلته فى « ألمـا ــ أتا » قبل بضعة أسابيع • أردت أن أندفع اليه ، وأنادى « ميشا » ولكنى تذكرت بسرعة أن له اسما آخر هنا ، وأنه لا يجوز لى أن أتحدث بشىء حتى لأصدقائى القدامى ، ورآنى فى هذه الأثناء ، فسار بخطوات بطيئة نحو سريرى ، ومد يده الى متعمدا عدم المبالاة وقال : اسمى : « فورستر » •

فرددت عليه : اسمى : « لينديـن » •

فقال لى :

ــ « جميل أن تكون هنا ، فسوف تتعود على هذه الحياة بسرعة » •

ــ « نعم ! فأنا مسرور أن أكون فى هذه المدرسة » •

ولم نقل شيئا أكثر من هذا ، فقد التزمنا تنفيذ التعليمات بطريقة صارمة ، وان كان ذلك أمرا يدعو الى السخرية ، لأننا أصدقاء منذ عام ١٩٣٥ م ، أى منذ ثمانية أعوام •

كان سرير خاليا بيننا ، وكنت شغوفا بمعرفة من ينام فى هذا السرير بجانبى « ألمـانى » ؟ فأومأ « ميشا » برأسه • رتبت حاجاتى فى الخوان ولم ألاحظ أن جارى فى السرير قد دخل صالة النوم ، ووقف بجانبى • التفت فجأة فرأيت « هلموت جينيس » الذى كنا نسميه فى بيت الأطفال « هلميرل » وكان من أعز أصدقائى •

ينحدر « هلموت » من شرق « بروسيا » حيث كان والده من زعماء الحزب الشيوعى • كنا نعمل واجباتنا المدرسية — لمدة سنوات عديدة — على منضدة واحدة فى بيت الأطفال ؛ وقرأنا كتبا واحدة تقريبا ؛ وتناقشنا طويلا أثناء تجولنا ، الذى كان يمتد ساعات عبر شوارع موسكو ، فهو يعرف حياتى ، وأنا أعرف حياته ؛ صداقة لا تنفصل ؛ فهى صداقة علمان بين الرابعة عشر • والسابعة عشر •

كذلك كنا نستعد معا لاختبار الدخول فى منظمة الشباب ، وقبلنا فيها فى وقت واحد تقريبا • ولكن نادرا ما كنا نتقابل فى الأعوام الأخيرة ، فقد أنهى الفصل العاشر (أربع سنوات بعد الابتدائية) عندما اندلعت الحرب •

قال لى : اسمى : « تسال ؛ •• بيتر تسال » •

فرددت عليه : اسمى : « ليندين » •

ثم صمتنا •• • ثم بدأ الكلام بصوت رزين : « متى وصلت » ؟

فقلت : « آه ! منذ بعض الوقت » •

كنت أتصور لقائى بصديقى « هلموت » الذى هو الآن « بيتر تسال » بعد غيبة طويلة ؛ بصورة مختلفة تماما • ولكن هاهو ذا الآن • التزم بقواعد النظام التزاما حرفيا — فقد أصبح فى الأعوام الأخيرة متحمسا لليننية — ولم يعد لى مفر من الالتزام بها أيضا •

لقد علمت قبل هذا ، ما سيكون عليه الوضع فى هذه المدرسة ، ولكن اذا لم أحصل على معلومات من « هلموت » فمن العسير الحصول على شىء من شخص آخر •

استيقظت فى الصباح على صوت جرس مزعج ، فوجدت أن كل من فى الحجرة قد نهض واقفا وصاح « هلموت » : « تمرين الصباح » •

تجمع كل من فى المدرسة — بما فيهم المدرسون — فى فناء واسع ، ووقفوا فى مجموعات حسب جنسياتهم ، وصاح قواد المجموعات ببعض النداءات العسكرية • ثم وقفنا جميعا وقفة انتباه — كان هذا جديدا بالنسبة لى ، لأن ما أخذته — وأنا طالب — فى التدريبات العسكرية لم يكن سوى حصص معدودة ، ولم أكن أتصور مثل هذا فى مدرسة الحزب — ثم سرنا بالخطوة العسكرية المنتظمة الى ميدان التدريب الذى لا يبعد كثيرا عن المبنى الرئيسى •

كنا نبدأ كل يوم بتمرين الصباح : رياضة بدنية ، وتزاوف

ظهرى . وقفز ، ومشى مسافات طويلة . وتسجل النتائج بدقة تامة ، يبدو أن للتمرينات الرياضية قيمة كبيرة فى برنامج المدرسة .

وبعد تناول فطور حافل بالأنواع المتعددة — التباين شاسع بين الطعام الجيد ، ورداءة أمكنة النوم — ذهبت الى السكرتارية ، ولم ألبث هناك دقائق حتى استدعيت للدخول على المدير . لم أعرف عنه شيئا سوى أنه يدعى « ميخايلوف » أو بمعنى أدق ، أنه يدعى فى المدرسة بهذا الاسم .

ولم أعلم الا فيما بعد أنه بلغارى ، يتحدث لغات متعددة ، وأنه تقلد أثناء حرب أسبانيا مناصب هامة فى مدارس الحزب ، وعلى الأخص فى مدرسة الأمناء السياسيين . وكان محرر الجريدة الأسبانية (El Comisario) الأمين .

يشبه « ميخايلوف » فى كثير من الصفات ، أصدقائى فى المكتب السياسى فى « كاراجندا » ويبدو عليه طابع موظفى المكاتب أو مديرى المدارس . لم يسأل الأسئلة الروتينية ليتلقى الأجوبة المحفوظة المكررة ، بل سار الحديث معه كما لو كان مسامرة عادية ، وفى ثنايا هذه المسامرة ، سألنى عن عملى فى منظمة الشباب ، وعن دراستى . نعم لقد سألنى أيضا عما اذا كنت قد احتملت وعثاء السفر ومتاعبه . ثم بعد ذلك كله دخل فى موضوع « مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » حيث بدا لى أنه يريد أن يقف على معلوماتى السياسية .

— « هل اطلعت على المراجع الهامة للماركسية اللينينية » .

— « نعم ! طبعا » .

— « أى كتب « لينين » قرأت حتى الآن » ؟

— « لقد قرأت مجموعة كبيرة ، منها ما كان مقررا فى المعهد العالى ومنها عن طريق قراءاتى الحرة . ومن هذه الكتب :

« ما العمل » ، « خطوة الى الامام ، خطوتان الى الخلف » ، « حيلتا الديمقراطية الاشتراكية فى الثورة الديمقراطية » ، و...

قاطعنى فسأل — بلهجة ودودة — جملة من الأسئلة ، تناولت الكتب التى سردتها عليه .

بان لى أنها لم تكن أسئلة « عادية » مثل تلك الأسئلة ، التى كانت

تلقى فى دروس المعهد العالى ، بل كانت أدق صياغة ، بحيث يظهر مباشرة من الاجابة عليها ، عما كنت قرأت هذا الكتاب ، وفهمته ، أم لا ؟

أجبت على أسئلته باختصار ، سؤالا بعد آخر ، فظهر لى أنه مسرور من هذه الاجابة ، ولم أعجز الا فى سؤال واحد ، فقد تلجلجت فى الاجابة عليه وهو : « ضد أى اتجاه أيديولوجى كان « لينين » فى كتابه : « ما العمل » ؟

كان سؤالا بسيطا جدا بالنسبة للظروف السوفييتية ، ولكن غابت عنى الاجابة على هذا السؤال فجأة ، فلم أتذكرها .

تبسم ، ثم قال : « أنت تعرف هذا بالتأكيد ! ضد الاقتصاديين » .

لقد كنت أعلم هذا حقيقة . بدأت أشرح له المسائل التى تناولها « لينين » فى هذا الكتاب ، ولكنه أسكتنى باشارة من يده قائلا : « يكفى هذا ، ستدرس هذه المسائل هنا بالتفصيل » .

ثم فتح موضوعا آخر :

« كما ستعلم ! هذه مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية . نحن هنا نعد القيادات لدول مختلفة . هل أنت مستعد للعمل فى ألمانيا » ؟

فى ألمانيا ؟ كان هذا جديدا بالنسبة لى ، ولم أعلم اطلاقا ، ماذا يعنى بهذه الجملة ؟ عمل غير شرعى ؟ عمل مع أسرى الحرب الألمانيين ؟ عمل سياسى بعد هزيمة « هتلر » ؟

أجبته : « هذا مسلم به طبعا » .

نظر الى نظرة حادة :

« أيها الرفيق « ليندين » ان واجب كل تلميذ هنا ، الاستعداد للعمل فى وطنه والشعور بالالتزامات الوطنية نحو بنى وطنه .

ويجب أن تعلم أن واجبك سيكون فى ألمانيا ، ولذا فلابد أن تهتم فى المقام الأول بالمشاكل الألمانية » .

وانتهت المقابلة بذلك . سلم على بحرارة ، ثم تمنى لى نجاحا سعيدا . علمت فى اليوم التالى أن مدرسة الجبهة مقسمة الى أقسام تبعا لجنسيات الدارسين . وكان من الملفت للنظر أنه كان هناك فى عام ١٩٤٢ م قياديون من بلاد كانت فى حالة حرب مع أو ضد الاتحاد السوفييتى ، ومن البلاد التى كانت واقعة تحت الاحتلال النازى : ألمانيون ، ونمساويون ، وألمانيون من مناطق شرق أوروبا ، وأسبانيون ،

وتشيكيون ، وسلوفاكيون ، وبولنديون ، ومجريون ، ورومانيون ، وبلغاريون ، وفرنسيون ، وايطاليون .

ولكل مجموعة مدرس خاص ، ورئيس من الطلبة . كانت المجموعة الأسبانية أكبر المجموعات ، فقد كانت تضم ما بين ٣٠ و ٤٠ طالبا . وتضم المجموعات المتوسطة — الألمانيون ، والنمساويون ، والألمانيون من مناطق شرق أوروبا ، والبلغاريون — ما بين ١٥ و ٢٠ طالبا . وكانت المجموعات الأخرى أقل من ذلك عددا .

لم يمثل البريطانيون ولا الأمريكيون ، فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وعلاوة على هؤلاء فقد كان هناك يوغسلافى واحد ، انضم الى مجموعة البلغاريين ، وأرجنتينية ، زوجة أحد زعماء الحزب الشيوعى فى الأرجنتين ، اشترك فى الحرب الأهلية فى أسبانيا ، ويدرس الآن مع زوجته فى مجموعة الأسبانيين .

كانت الدروس منفصلة ، لكل جنسية على حدة ، وكان الكل يجتمع فقط فى المحاضرات العامة ، التى تتناول موضوعات ذات أهمية عالمية ، حتى المجموعات الثلاث ، التى تتحدث لغة واحدة — الألمانيون ، والنمساويون ، والألمانيون من مناطق شرق أوروبا — كانت دروسهم منفصلة أيضا .

لم يكن انفصال النمساويين فى مجموعة واحدة مستغربا ، لأنه كان واضحا أن النمسا ينبغى أن تعود دولة مستقلة ، ولكن كان من الواضح أيضا أنه لم يتقرر بعد مصير الألمانيين من مناطق شرق أوروبا ، فهم ينحدرون من تشيكوسلوفاكيا والا ما كان لهم مجموعة خاصة لهم فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .

ولم أعرف الا بعد أسابيع عديدة أن فى المدرسة — بجانب هذه المجموعات الاثنتى عشرة — مجموعات أخرى ، كان هناك مبنى صغير فى الطرف الآخر بعيدا عن المبانى التى تقيم فيها هذه المجموعات ، أحيط بسور خاص ، وحرم علينا الذهاب اليه . كانت الحواجز بيننا وبين من وراءه سميكة ماديا ومعنويا ، فلم يعلم أحد منا ما يدور خلف هذا السور ، ولا من يدرس فى هذا المبنى الصغير . ثم تسربت الأخبار شيئا فشيئا : يدرس فى هذا المبنى كوريون . ويعيشون منفصلين ، ولم يشتركوا معنا فى المناسبات العامة .

ليس من الصعب شرح أسباب هذه الاجراءات التحفظية على

الكوريين ، اذ كان الاعداد السياسى فى مدرسة الجبهة ؛ قاصرا على القياديين الشيوعيين من البلاد التى هى فى حالة حرب مع أو ضد الاتحاد السوفييتى ؛ ومن البلاد الواقعة تحت احتلال دول المحور • ولم يكن الاتحاد السوفييتى حتى عام ١٩٤٥ م فى حالة حرب مع اليابان ، بل عقد معها معاهدة عدم اعتداء وكانت بينهما علاقات دبلوماسية عادية ، وبناء عليه تحتم أن يكون اعداد الكوريين — الذين سيجهزون لا محالة للحرب ضد الاحتلال اليابانى — تحت ستار من السرية التامة •

لم يكن اطلاق الاسم الحركى قاصرا على الطلبة « الدارسين » بل كان للمدرسين أيضا أسماء حركية ، ولهذا لم أعرف — أثناء مدة دراستى فى المدرسة ، ولا بعدها بأعوام طويلة أسماء المدرسين الحقيقية •

لم أعرف الا أسماء اثنين فقط (باستثناء المجموعة الألمانية) فى ١٩٤٥ من صورهم التى نشرت فى الصحف ، حيث تقلدوا مناصب عليا فى الحزب والحكومة • ومن هذا تأكدت أن مدير المدرسة كان « يعقوب بيرمان » الذى هو اليوم (١٩٥٤) عضو المكتب السياسى فى حزب العمال البولندى المتحد ؛ ونائب رئيس وزراء جمهورية بولندا الشعبية •

درس « يعقوب بيرمان » فى شبابه القانون فى جامعة « وارسو » ؛ وكان أحد زعماء الحركة الطلابية الثورية البولندية ؛ وعقب هذا مباشرة ؛ أصبح عضوا فى زعامة الحزب البولندى •

وبعد حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى عام ١٩٤٣ ؛ صار الموجه لتأسيس وحدة الوطنيين البولنديين فى الاتحاد السوفييتى ، واشترك فى الفرقة البولندية (Kostijuschko) التى تدربت فى الاتحاد السوفييتى ؛ ثم أصبح فى عام ١٩٤٤ نائب وزير الخارجية فى الحكومة المؤقتة فى « لوبلين » •

كذلك رأيت أيضا صورة قائد المجموعة النمساوية فى مدرستنا فيما بعد فى الجزائد • كان اسمه الحقيقى « فرانس هونر » انضم الى الحزب الاشتراكى النمساوى فى عام ١٩١٨ ، ثم انتقل الى الحزب الشيوعى فى عام ١٩٢٠ م واعتقل فى اضطرابات عام ١٩٣٤ ، ولكنه تمكن من الهرب الى الاتحاد السوفييتى • ثم اشترك فى الحرب الأسبانية مع المجموعة النمساوية ضمن الفرقة العالمية ، وعاد الى الاتحاد السوفييتى بعد انهيار الجمهورية الأسبانية فى عام ١٩٣٩ م •

وعندما حلت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — وبالتالى المدرسة —

فى مايو سنة ١٩٤٣ م ذهب الى موسكو ، ثم انضم فيما بعد الى فرقة التحرير النمساوية ، التى كانت تعمل تحت قيادة الجيش اليوغسلافى ، الذى قاد حرب العصابات ضد جنود الاحتلال .

تقلد « فرانس هونر » وزارة الداخلية لفترة وجيزة فى الحكومة النمساوية المؤقتة .

لم أسمع شيئا اطلاقا عن المدرسين الآخرين — باستثناء مدرس المجموعة الألمانية — بعد أن تركنا المدرسة . غير أنه من المؤكد : أن هؤلاء المدرسين كانوا من زعماء القمة — المؤهلين تأهيلا عاليا — فى الأحزاب الشيوعية فى بلاد مختلفة ، ويتولون الآن لا شك كل المناصب العليا فى بلادهم — اذا لم يكونوا قد سقطوا ضحايا احدى حركات التطهير العديدة التى وقعت بعد هذا التاريخ .

* * *

المجموعة الألمانية

كان قائد مجموعتنا ومحاضرها الأصلى رجلا يبلغ من العمر ٤٠ عاما ، عيونه سوداء ناعسة ، يتحدث الألمانية بلهجة سكان جنوب ألمانيا ، واسمه الحركى « كلاسنر » ، كان النموذج الكامل للمثقف فى « الستالينية » . اذ كانت معلوماته واسعة ، وعميقة ، ليس فقط فى دائرة « الماركسية — اللينينية » ، وتاريخ جبهة لأحزاب الشيوعية العالمية ، والحزب الشيوعى الألمانى ، بل فى التاريخ الألمانى والفلسفة ، وزيادة على ذلك فقد اهتم لمدة سنوات عديدة ، بمسائل منطقة البلقان .

لم يدع شيئا يهز مركزه على الاطلاق ، فقد كان مستعدا للتضحية بأعز أصدقائه وزملائه ، اذا طلبت منه الزعامة ذلك . كان حريصا جدا باستمرار ، فلم يتفوه بتعبير دون أن يفكر فيه ويزنه قبل أن ينطق به . كان يختار الكلمات الدقيقة ، ويمكن للمرء أن يجزم بأنه كان متفقا على طول الخط مع الاتجاهات الرسمية .

مكنه تفوقه فى الذكاء من ملاحظة أى اشارة بسيطة لتغيير الاتجاه « الأيديولوجى » فى الوقت المناسب ، والتصرف بسرعة طبقا لمقتضيات الاتجاه الجديد . وكان مستعدا لتغيير رأيه من يوم لآخر تبعا لتغيير الخط السياسى ، والدفاع عن الاتجاه الجديد بأسلوب منطقى براق ، ومحاولة رفعه الى عنان السماء ، على الرغم من أن ذلك مخالف لما قاله فى اليوم السابق . كان محاضرا ممتازا ، يضع علمه النظرى الكبير —

دون مبالاة — فى خدمة الأوامر الصادرة اليه ، يقيم الدليل على صحتها ، ويشرحها ، ويعمل لها دعاية كبيرة •

لم أعرف آنذاك اسمه الحقيقى ، ثم علمت فيما بعد أنه « باول فانديل » ينحدر من « مان هايم » درس فى مدرسة « لينين » فى موسكو ، ثم التحق أخيرا بجهاز جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فعمل مع « فيلهلم بيل » فى قسم شئون البلقان • ثم أصبح بعد عام ١٩٤٥ م رئيس الادارة المركزية للتثقيف الشعبى ، ثم وزيرا للثقافة فى حكومة المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى • وفى عام ١٩٥٢ م أزيح من الحكومة . فأصبح رئيس قسم الرقابة والتنظيم للتعليم ، والعلوم ، والفن • ومنذ عام ١٩٥٣ م سكرتيرا للجنة المركزية « للاتحاد الاشتراكى الألمانى » •

كان نائب رئيس المجموعة الألمانية فى مدرسة الجبهة هو « برنارد كونين » من القادة العماليين المسنين ، حاول أن يثقف نفسه لينسجم موقفه مع الجو الذى يعيش فيه فتطلب ذلك منه جهدا كبيرا •

كان عضوا فى الحزب الاشتراكى منذ عام ١٩٠٧ م • ثم انتقل فى عام ١٩١٧ م الى الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل • وكان رئيس النقابة العمالية لشركات « لوينا » عندما قامت ثورة أكتوبر عام ١٩١٨ م •

ظل « برنارد كونين » مدة بعد عام ١٩١٨ م فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل ، ولكنه انتقل فى عام ١٩٢٠ م الى الحزب الشيوعى الألمانى • اشترك بنصيب لا بأس به فى الكفاح الثورى فى الفترة من ١٩١٩ م الى ١٩٢٣ ، وفى اضطرابات عام ١٩٢١ م ، وفى الحكومة العمالية ، قصيرة الأجل التى تكونت فى منطقة « زاكسين و تورينجن » فى عام ١٩٢٣ م •

أحس المرء بأن عنده الثورة العمالية الحقيقية على عكس ما كان « كلاسنر » ؛ فقد ظل حتى الآن بعيدا عن نموذج « الستالينيين » الذين يراقبون كل تغيير ، ويسيرون فى ركابه • لم ينجح أبدا فى اخفاء انفعالاته عند كل تغيير سياسى ، أو فى أن ينسجم بسرعة مع الخط الجديد ، كما كان يفعل « كلاسنر » •

لم أنس مشهدا حدث بينى وبينه ، فقد كان « كلاسنر » يكلفنى — بالاشتراك مع « برنارد كونين » وزوجته « فريدا » (التى كانت معنا

الذين كانت لديهم معرفة بسيطة باللغة الروسيـــة — بترجمة بعض المقالات الهامة من جريدة « برافدا » •

وذات يوم ترجمت مقالا من « برافدا » يتحدث عن كفاح الروسيين والبولنديين والشعوب السلافية الأخرى الخالد المشترك ضد الألمانيين • ترجمت دون تردد :

« يدور المقال حول اخوة السلاح الخالدة فى الكفاح ضد الألمانيين الأعداء الخبثاء للشعوب السلافية ، من قديم الزمان » •

نظر الى « برنارد كونين » فزعا ثم صاح :

« قف ! قف ! لقد ترجمت خطأ ، لا يمكن لك أن تقول هذا ، ترجم الجملة مرة أخرى » !

أعدت قراءة نفس الجملة •

كان « برنارد كونين » مضطربا :

— « أليس فى المقال شيئا عن الاستعمار الألمـــانى ، أو عن الطبقة الحاكمة فى ألمـــانيا » ؟

— « لا يا « برنارد » ! فالحديث هنا ببساطة عن الألمـــانيين » •

— « هذا غير ممكن » !

ودون أن أتفوه بكلمة ، أريته الجملة فى « برافدا » ، وفى نفس الوقت جملا أخرى تتحدث عن الألمانيين كأعداء خبثاء من قديم الزمان للشعوب السلافية » •

اصفر وجه « برنارد » ولم يقل شيئا • ومما لا شك فيه أنه لم يكن من السهل عليه — كعامل ثورى قديم — أن يصبح عميلا « ستالينيا » ، يدافع عن الاتجاه السياسى للقيادات العليا بدون قيد ولا شرط •

اعتقل جهاز المخابرات « برنارد كونين » أثناء حركة التطهير الكبرى فى الفترة من عام ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م • وفقد احدى عينيه فى السجن ، ثم أفرج عنه عن طريق وساطة أحد زعماء الحزب • وبعد ذلك استمر فى خدمة « الستالينية » •

أصبح « كونين » بعد عام ١٩٤٥ م سكرتير الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى فى منطقة « زاكسين » ، وتولى منصب سفير المنطقة السوفييتية (ألمـــانيا الديمقراطية) فى براغ عام ١٩٥٣ • وهو « لا شك » انخفاض فى درجته فى سلم المناصب •

كان عندنا بجانب المحاضرين الرئيسيين « باول فانديل » (كلاسنر) ، و « برنارد كونين » — معيدة ، كانت تدعى فى المدرسة « لينى رينج » قابلتها بعد عام ١٩٤٥ م فى المنطقة السوفييتية باسم « لينى برج » كانت مدرسة فى مدرسة « كارل ماركس » التابعة لحزب « الاتحاد الاشتراكى الألمانى » ؛ ثم أصبحت بعد ذلك اليد اليمنى لـ« برنارد كونين » فى قيادة الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى مدينة « هاللى » .

كان عدد الطلبة فى مجموعتنا من ١٨ — ٢٠ طالبا تقريبا ، وكان بعضهم من المتقدمين فى السن ، الذين التحقوا بالحزب الشيوعى الألمانى قبل عام ١٩٢٣ ومنهم :

« أوتو » من هامبورج .

« فيلى » من برلين (لم أعرف اسمها الحقيقى حتى الآن) .

وكان كلاهما فى « رابطة كفاح الجبهة الحمراء » وقاتلا معا مع الفرقة العالمية فى الحرب الأسبانية .

« آرتور » واسمه الحقيقى « هاينز هوفمان » .

كان فى أسبانيا مستشارا سياسيا للفرقة رقم ١١ . وأصبح بعد عام ١٩٤٥ م جنرالا ورئيس كلية الشرطة ، ثم نائبا لوزير الداخلية فى ألمانيا الديمقراطية .

« لينى برنز » كانت تقوم بنشاط قبل عام ١٩٣٣ م ، وقامت بعمليات خاصة ، حتى فى اليابان . أصبحت بعد عام ١٩٤٥ مدرسة فى مدرسة (SMA) ، وفيما بعد فى جمعية الصداقة السوفييتية الألمانية فى برلين الشرقية ، وبعد ذلك فى وزارة الخارجية فى ألمانيا الديمقراطية » .

كان معظم المجموعة الألمانية فى مدرسة الجبهة من الشبان — مثلى ، رفقاء صغار وأعضاء فى منظمة الشباب — الذين نشأوا فى الاتحاد السوفييتى ، قابلت هنا كثيرا من أصدقائى من بيت الأطفال رقم ٦ ، ومن مدرسة « كارل ليبكنيشت » .

بجانب « ميشا فولف » و « هلموت جنيس » و « جان فولجيلر » وقد تحدثت عنهم سابقا وهم يدعون فى المدرسة « فورستر » و « تسال » و « دانيلوف » — قابلت أيضا :

« ماريانى فاينرت » بنت الشاعر الشيوعى المشهور « ايريش

فاينرت » وقد تعرفت عليها فى عام ١٩٣٢ م أيام أن كنا أطفالا فى برلين ، كنا نسكن فى حى الفنانين عند ميدان « برايتن باخ » •

« ايمى » و « الزى شتنسر » • كان والدهما عضو الحزب الشيوعى فى البرلمان الألمانى ، واغتاله النازيون •

كان لى أصدقاء كثيرون فى المجموعة النمساوية : وتعود صداقتنا الى الأيام التى كنا نقيم فيها فى بيت الأطفال رقم ٦ :

« رودى سبيريك » ابن أحد قادة رابطة الدفاع الديمقراطية الاشتراكية ، الذى سقط قتيلا فى كفاح فبراير عام ١٩٣٤ م •

« تونى شلوجل » من « سان بولتين » •

« آليس كلوك » يبدو أن الدراسة كانت صعبة عليها فى مدرسة الجبهة ، واضطرت فيما بعد الى الالتحاق باحدى المدارس التابعة للحزب •

« هانز شايشينبرجر » ؛ وكنا نسميه فى بيت الأطفال « زنجى » مداعبة ، بسبب هيئته ؛ ولا زال له حتى الآن هذه الساحرية القديمة •

ولم أعرف أحدا من المجموعات الأخرى ، الا أنى رأيت فى اليوم الثالث فتاة أسبانية ، رائعة الجمال ، فخيل الى أنى أعرفها من قبل ، ثم عرفتها ؛ فقد كانت « أمايا ابروري » بنت « دولورس ابروري » سكرتيرة عام الحزب الشيوعى الأسبانى • استطاعت فى سنوات قليلة أن تقفز من مجرد عضو قيادى صغير فى الحزب الشيوعى الى أشهر امرأة فى الجمهورية الأسبانية : « سينيورا » •

وبعد القضاء على الجمهورية الأسبانية ، جاءت مع ابنتها وابنها الى الاتحاد السوفييتى ؛ كان ابنها يقاتل مع الجيش الأحمر ، فسقط فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ م عند « ستالينجراد » أما ابنتها فتدرس معنا الآن فى مدرسة الجبهة ، واسمها الحركى « مايا روين » •

لم تكن بنت « السينيورة » هى الشخصية الوحيدة — من الشخصيات البارزة — فى مدرستنا ، فقد لفت نظرى فى حجرتنا ، رفيق شاب ، فقد احدى زراعيه ، كان يتكلم الروسية بطلاقة ، وحكى مرة — دون أن يتذكر نظام المدرسة — فى صالة النوم ، أنه قاتل فى الجبهة فى عام ١٩٤١ م ، وفقد احدى زراعيه فى المعركة • وبدا عليه أيضا أنه ليس من الأشخاص الذين ينطوون بسهولة ، ولم يأخذ كل أنظمة المدرسة مأخذ الجد • فسمح له بطريقة أو بأخرى بأشياء لم تكن مسموحة لنا •

تعجبت من هذا ، وذات يوم دخل الحجرة ، فصاح الجميع :
« شاركو ! .. هل من جديد » ؟
تعرفت عليه ، وبدأت أتقرب منه ، ولم يمض وقت طويل حتى صرح لى باسمه الحقيقى : لقد كان ابن « تيتو » .

* * *

ما تعلمناه فى مدرسة الجبهة

كما حدد لى سابقا الوجهة التى ينبغى أن أسافر اليها فيما بعد ، علمت الان أيضا ، ما ينبغى أن نتعلمه فى المدرسة :
فالدراسة فى المدرسة عبارة عن سلسلة من المحاضرات فى موضوع ما ، وتستمر غالبا أسبوعين أو ثلاثة — وأحيانا أطول من ذلك — ثم فى نهايتها يعلن عن الموضوع التالى .
درسنا فى العشرة اشهر التى قضيتها فى المدرسة الموضوعات التالية :
تاريخ الحزب الشيوعى الألمانى ، وتاريخ الحزب الشيوعى الروسى ، الجمهورية الفايمرية ، الفاشية ، طبيعة وتطور الحرب العالمية الثانية ، الاقتصاد السياسى ، المادية التاريخية الجدلية ، تاريخ الشيوعية العالمية ، نظرة فى تاريخ ألمانيا .
ألقى عدد من المحاضرات عن كل موضوع ، وكان يقوم بالقائها : « باول فانديل » وأحيانا « برنارد كونين » ، أو « لينى برج » وبالاضافة الى ذلك ، فقد ألقى رفيق مجرى بعض المحاضرات فى موضوعات تاريخية .
وفى نهاية كل محاضرة يتلو المحاضر علينا عددا من المراجع ، التى يجب أن نرجع اليها استعدادا لمناقشة فى الحلقات الدراسية ، وكما هو الحال فى المعاهد العليا السوفييتية فقد قسمت المراجع الى ما يسمى « المراجع الضرورية » التى لابد من الرجوع اليها ، والمراجع الاضافية : التى يرجع المرء اليها فى نظريات خاصة .
حدد لكل مرجع عدد الساعات الواجب قضاؤها فى قراءته ، حتى يلم بالمطلوب ، وكنا ملزمين بتقييد ذلك فى مفكرة ، تخضع لرقابة شديدة ، وبعد المذاكرة تعقد حلقات الدراسة التى تستمر ثلاث ساعات وأحيانا أكثر من ذلك .
وكان هناك أيضا محاضرات عامة لجميع المجموعات ، وكانت تلقى فى المكتبة أو فى صالة المطعم ، لأنه لم يكن هناك قاعة محاضرات كبيرة .
ألقى مدير المدرسة الرفيق « ميخايلوف » محاضرات عن تاريخ

الشيوعية العالمية ، وكانت ممتازة حقا ، فلم أسمع لا قبلها ولا بعدها ما يدانيها .

كان يتحدث بالروسية وجلس فى مقدمة الصفوف ، الطلبة الذين كانوا يتقنون الروسية ومعظمهم من الشبان ، بينما ترجمت المحاضرة للرفقاء وكبار السن — حيث جلسوا على مناضد أخرى كل مجموعة على حدة — الى : الأسبانية ، والألمانية ، والفرنسية ، والايطالية ، والرومانية ، والتشيكية ، والسلوفاكية ، والبولندية ، والمجرية . وسارت الترجمة الفورية دون ضوضاء ، لأن كل مجموعة جلست على منضدة بعيدة عن المجموعة الأخرى . ثم تلا المحاضرة حلقات دراسية لكل مجموعة ، تولى كل محاضر شرح المحاضرة العامة لمجموعته فى هذه الحلقات .

كان موضوع تاريخ الشيوعية العالمية ، من أهم الموضوعات التى درسناها فى المدرسة ، فقد شرح تطور الأحزاب الشيوعية فى الدول المختلفة ، كل على حدة ، والنضال والأحداث الثورية ابتداء من عام ١٩١٩ م شرحا وافيا لدرجة أننا كنا نحس أننا عشنا هذه الأحداث : ثورة « سبارتاكوس » والنضال فى « الرور » ووسط ألمانيا ، أحداث الثورة فى بولندا ، موجة الاضطرابات الضخمة عام ١٩٢٠ م فى ايطاليا ، استيلاء « موسوليني » على السلطة ، النضال فى بلغاريا عام ١٩٢٣ م ، الفترة التى يطلق عليها « الاستقرار النسبى » ١٩٢٤ — ١٩٢٩ ، الأزمة الاقتصادية العالمية ، استيلاء « هتلر » على السلطة — شرحت لنا هذه الأحداث فى المحاضرة شرحا مفصلا ، غير أنه — كما تأكدت فيما بعد — كان بالطريقة « الستالينية » التى كانت تزيف الحقائق .

كذلك تناولت الدراسة أيضا بالتفصيل ، الحركات الثورية فى البلاد المستعمرة ، وفى آسيا : : ثورة « كمال أتاتورك » فى تركيا ، الحركات المناهضة للاستعمار فى شمال افريقيا ، حركة « غاندى » فى الهند ، تطور الأحزاب الشيوعية فى اليابان وأندونيسيا ، وقبل هذا كله ، تطور الثورة الصينية .

لم يلق « ميخايلوف » كل المحاضرات ، التى تناولت موضوع الشيوعية العالمية ، بل اشترك معه « يعقوب بيرمان » و « هونر » أو « باول فانديل » . كان القاؤهم رائعا مثل « ميخايلوف » — وعلى الأخص « بيرمان » — الكلمات واضحة ، والأسلوب شيق ، والمعلومات

غزيرة ، على عكس الدروس المملة ، ذات النغمة الواحدة ، التى كنا نعرفها جيدا من الاحتفالات والاجتماعات التى تقام « للفرد السوفييتى العادى » .

كان أهم الدروس التى شغفت بها فى مجموعتنا الألمانية المناقشة السياسية والأيديولوجية حول النازية . أما الموضوعات الأخرى — المادية التاريخية الجدلية ، والاقتصاد السياسى و .... الخ — فقد أخذتها فى المعهد العالى فى محاضرات عن « أسس الماركسية — اللينينية » فلم تكن جديدة بالنسبة لى ، وعلى العكس من ذلك : كانت المناقشة السياسية مع الأيديولوجية النازية ، جديدة كل الجدة بالنسبة لى .

كان موضوع سلسلة كبيرة من المحاضرات : تاريخ الحزب النازى ، و « هتلر » فى شبابه ، والتنظيمات النازية الأخرى ، كذلك تاريخ حياة زعيم النازية ..... وكانت النقطة الصعبة ، هى تحليل جوهر النازية ، والأسباب التى أدت الى استيلاء « هتلر » على السلطة .

درسنا الأيديولوجية النازية بالتفصيل — نظرية تفوق السلالات البشرية ، نظرية أماكن التجمع البشرى ، النظرية النازية للتاريخ ... الخ — من المصادر النازية ، وتعمقنا فيها لدرجة أننى بعد عام ١٩٤٥ م ، عندما قابلت ذات مرة نازيا حقيقيا ، تأكدت أننى أفوقه بمراحل فى معرفة نظرياتهم .

كنت أتعجب دائما من حرية التفكير والواقعية ، التى كنا نمارسها — أثناء الحرب التى هى حياة أو موت — فى مناقشة النازية وأيديولوجيتها . وغالبا ما كان يكلف أحدنا بالقاء محاضرة أمام الطلبة عن دعوى معينة فى الأيديولوجية النازية ، بينما يكون من واجب الآخرين ، مناقشة هذه الدعوى ، واضعاف الأدلة النازية . وعلى المحاضر فى هذه اللحظة أن يدافع عن النازية دفاع المستميت ، المقتنع بصحة دعواها ، وتتعلق درجة تقديره ، بمقدار استطاعته فى الدفاع عن النازية .

كان يحدث أحيانا أن يأخذ « كلاسنر » بنفسه دور المحاضر والمدافع عن النازيـــة ، وكان يشرح الدعوى بطريقة لبقة — ربما أكثر لباقة ، مما يستطيعه معظم النازيين أنفسهم — فيتعذر علينا الاتيان بحجة تبطل دعـــواه .

ولكن كان لحرية الفكر (لم نقرأ المراجع النازية فقط ، بل شروح وبحوث من الأحزاب الوطنية ، والأحزاب الديمقراطية الاشتراكية فى

بلاد مختلفة ؛ كذلك النشرات الدورية البابوية) — كان لهذه الحرية — حد ، فعندما كنا نندمج فى مناقشة أيديولوجية سياسة أخرى ، ويبدو أنها ستؤثر على أفكارنا (ولكن يكن فى ادراكنا ، أن هذا يرتبط بأى خطر بالنسبة لنا ، لأنه لا أحد منا كان باستطاعته التأثر لحظة واحدة بهذه المفاهيم) كانت تضرب حولنا التحفظات الشديدة ، وخاصة اذا كان الموضوع يتعلق بآراء المجموعة الشيوعية المعارضة ، اذ يتوقف كل تسامح عند هذه النقطة ، فلا نتعمق فى دراستها ، ولا نقرأ من مراجعها شيئا •

سمعنا أسماء مثل : « براندر » و « تالهايمر » و « روت فيشر » و « ماسلوف » و « كورش » و « كاتس » ومعارضين آخرين انفصلوا فى العشرينات مع بعضهم ؛ ومعهم أتباعهم من الحزب الشيوعى الألمانى ؛ أو طردوا منه ؛ وكونوا تنظيما معارضا • ولكن ماذا كان اتجاه هذه المجموعة ، وماذا كانوا يريدون ؟ لم نسمع كلمة عن هذا •

وجدت هذا أيضا مع المجموعة المعارضة داخل الحزب البلشفى ؛ ثم نقرأ الا سطرا عن المراجع الأصلية التى كتبت عن المعارضة العمالية بزعامة « شلابنيكوف » ، وعن مجموعة « المركزية الديمقراطية » بزعامة « أوسينسكى » وكذلك عن « التروتسكيين » و « البخاريين » • ولاحظت هذا فى الدروس والحلقات الدراسية ، وخاصة فيما يتعلق بـ« التروتسكيين » •

انقلب محاضرنا « كلاسنير » الى شخص آخر ، عندما تناول هذا الموضوع ، اذ صب جام غضبه على هؤلاء ، وبدلا من أن يأتى بحجج وبراهين موضوعية ، تدفقت كلمات السباب واللعن على هؤلاء (ولم يظهر هذا النوع من الهجوم فى مدرسة الجبهة ، الا عند تناول موضوع من هذه الموضوعات) • ثم أخذنا المراجع لموضوع « التروتسكيين » ولم تكن سوى مواد مكررة ، مجموعة من أقوال « لينين » ضد « تروتسكى » (ومن الطبيعى أن أقواله التى كانت مدحا فى « تروتسكى » قد أهملت) ، وفقرات من كتب « ستالين » • ولم يكن فيها سطر واحد من أقوال « تروتسكى » ! وبينما كانت الحلقات الأخرى ، تشير الى مكانة « تروتسكى » بعين الاحترام ، كانت حلقتنا عن « التروتسكية » لعنا وسبا •

لم أستطع تفسير ذلك آنذاك ، على الرغم من أن الأسباب كانت

فى متناول اليد • ولم يسمح لنا بمعرفة آراء التنظيمات المعارضة ، لأن فيها أشياء تهدد النظام « الستالينى » • وكانت الزعامة « الستالينية » تدرك أنه لا خطر من أن نقرأ خطب « هتلر » و « جوبلز » . ونشرات الأحزاب الوطنية أو النشرة البابوية ، لأن من الثابت أنها لن تؤثر علينا أقل تأثير • ولكن كتب « تروتسكى » ونشرات التنظيمات المعارضة لـ« ستالين » التى تنقد وتهاجم النظام « الستالينى » من وجهة نظر « الماركسية » ؛ فهى — لاشك — ستترك أثرا عندنا — وربما نقتنع بوجهة نظر هؤلاء •

* * *

مشاكل العصر السياسية

درسنا مشاكل العصر السياسية ، بجانب النظريات السياسية ، لقد كانت قواعد غير مكتوبة ، أننا يجب أن « نربط النظرى بالعملى » ، وهكذا تناولت المجموعات فى مناقشاتها الأحداث السياسية المعاصرة ، اذ نوقش فى كل مجموعة الوضع الراهن فى بلدها ، وواجبات الشيوعيين ازاءه • كانت قاعدة هذا الموضوع فى مجموعتنا الألمانيـة . هو مادة عما كان يسمى « مناقشات مؤتمر اسلام العالمى » فى ألمانيـا . الذى عقد — كما زعم — فى نوفمبر عام ١٩٤٢ فى احدى مدن منطقة « الرور » •

وقيل لنا : انه وضع فى هذا المؤتمر غير القانونى (أى سوى بعيدا عن أعين السلطة الحاكمة) — الذى اشترك فيه حوالى ٣٠ شخصا : من بينهم ممثلون عن النقابات ، وأعضاء من الحزب الشيوعى الألمانى ، ومن الحزب الاشتراكى الألمـانى ، وقانونى ، وبعض المثقفين الوطنيين — برنامج لانهاء الحرب والاطاحة « بهتلر » •

راودنى شك كبير آنذاك فى أنه قد انعقد مثل هذا المؤتمر ؛ ولم أكن الوحيد ، الذى شك فى هذا الخبر • كان الشك يفوق تطابق الشرح مع « الخط الصحيح » (وعلى فكرة ! فقد علمت بعد عام ١٩٤٥ م أن مثل هذا المؤتمر لم ينعقد ، ولم يعد يذكر شىء عنه الآن فى الاتحاد السوفييتى) •

لم تواتنى الشجاعة أحد آنذاك فى أن يعبر عن شكه فى « مناقشات غرب ألمـانيا » واعتبر « البرنامج المزعوم » أساسا لكل دراسة برمتها •

امتدت الحلقة — التى تناولنا فيها دراسة هذه « المناقشات » ، والقرار المزعوم الذى اتفق عليه المؤتمرون بعد مناقشتهم — أسابيع •

دعت « مناقشات غرب ألمانيا » الى تكوين « لجان شعبية » ، وبناء عليه فقد وجب علينا دراسة كل ما يتعلق بهذه اللجان .

كان موضوع « مشاكل العصر السياسية » أضعف موضوع فى مدرسة لجبهة . كانت كل المجموعة الألمانية تقريبا من الذين اضطروا الى ترك ألمانيا وهم أطفال ، ولهذا لم يكن عندهم أى فكرة عن النشاط فى ألمانيا .

تركت « لينى برج » ألمانيا بعد استيلاء (هتلر) على السلطة بعام ونصف ، ولكن لم توضح لنا — ولا يمكن أن توضح — شيئا عن الوضع فى ألمانيا فى عام ١٩٤٢ م .

تحدث المشتركون فى الحلقة بحماس عن لجان شعبية « سرية » فى المدن الألمانية المختلفة ، وفى المناطق الريفية . وناقشوا قوتها وفعاليتها العملية .

كان عملنا هذا ساذجا الى أقصى حدود السذاجة ، فقد بدأنا بعمل أهم التقريرات عن مدينة معينة فى ألمانيا مثل : التركيب الاجتماعى ، والنسبة المئوية للعمال والمثقفين ، وعن نتيجة انتخابات عام ١٩٣٢ م فى هذه المدينة ، وعن التركيب الدينى ، وعن الاقتصاد وفروعه ، وعن عدد الغارات الجوية التى شنت على المدينة ، موضع البحث .

وجب علينا — بعد هذا التقرير — أن نكون لجنة شعبية « حقيقية » — كانت العملية أشبه ما تكون بحل ألغاز الكلمات المتقاطعة — ، مع تحديد الحجم الذى ينبغى أن تكون عليه هذه « اللجنة الشعبية » ، وعدد العمال والمستخدمين والمثقفين فيها ، وميولهم الحزبية السياسية السابقة ، على انضمامهم لهذه اللجنة .

لم تكن المسألة سهلة ، فمن كون لجنة شعبية ، ونسى مفكرا أو محاميا ، عنف بسبب انحرافه الى « المذهبية » و (التقليل من قيمة الحلفاء فى الكفاح ضد هتلر » ، ولكن اذا ضم واحد عددا أكبر من اللازم من المحامين والعلماء الى « اللجنة الشعبية » اتهم بـ« التحيز الطبقى » و « التقليل من قيمة دور الطبقة العمالية » .

حول هذا الأسلوب من العمل أولئك الذين كانوا ضعافا فى حلقات الدراسة السياسية الجادة — مثل « ايمى شتنسر » و « أوتو » — الى مهرة حقيقيين فى تكوين « اللجان الشعبية » .

أما الآخرون الذين أخذوا المسألة مأخذ الجد ، فقد شعروا بالحيرة ، وهم يحاولون تكوين « لجان شعبية سرية » على الورق ؛ لتعمل فى مدن منطقة « الرور » أو فى مدن جنوب ألمـانيا ، بينما هم جالسون فى « فيلا » آيلة للسقوط فى الطرف الأقصى من منطقة « بشكيرين » •

كان التدريب على كتابة المنشورات أكثر جدية من هذا العمل الذى لا يخرج عن كونه لعبة حل ألغاز الكلمات المتقاطعة • كان مفروضا علينا أن نكتب فى مدى نصف ساعة منشورا « سياسيا مضبوطا » فى موضوع محدد ، ولم تكن تلك الموضوعات ، التى تحددت لكتابة المنشورات فيها سهلة فعلى سبيل المثال :

قرىء علينا فى أوائل أكتوبر سنة ١٩٤٢ م بيان « جورنج » عن زيادة حصص التموين فى ألمـانيا ، وطلب منا أن نؤلف منشورا حول هذا الموضوع ، ونركز فيه على تبديد الأمانى المتخيلة ، الذى قد يحدثها هذا البيان بين أفراد الشعب •

قرئت منشوراتنا فى حلقات خاصة ، واحدا بعد الآخر ، ونوقشت كل نقطة فى كل منشور ، ثم تبع ذلك نقد من المدرس •

ونظرا لأننا كنا نعمل هذا التمرين بكثرة ، ونناقش المنشورات بدقة ، فقد أصبحنا فى مدة قصيرة ، قادرين على تأليف منشورات واقعية فى أى موضوع •

لم نناقش منشوراتنا فقط ، بل كنا نحصل أيضا من القسم السياسى للجيش الأحمر على المنشورات التى كان يلقيها فى الجبهة • وكان من واجبنا تحليل منشورات الجيش الأحمر تحليلا كاملا ؛ ولا نقتصد فى نقدهـا • كان هذا جديدا بالنسبة لى ، فلم يطلب منى فى الاتحاد السوفييتى حتى الآن التعبير عن رأيى حول موضوعات صادرة من « الجهات العليا » •

كنا نقرأ بانتظام المنشورات السوفييتية ونناقشها ، وكنا نصرح بأننا نرى أنها ضعيفة ، وتأكد هذا الرأى عندما ازداد عدد أسرى الحرب ، وكان سببا فى اعادة تنظيم جهاز الدعاية السوفييتية ، وفى تكوين اللجنة الوطنية المعروفة باسم « ألمـانيا الحرة » •

قرأنا بشغف المنشورات التى كتبها الأسرى أو الجنود والضباط الألمـانيون الذين هربوا ، ولجأوا الى الجانب السوفييتى • كانت هذه لغة مختلفة تماما ، لفتت نظرنا فى كتيب ألفه نقيب يدعى « دكتور أرنست

هادرمان » تحت عنوان : « كلمة نقيب ألمـانى » ، وفى منشور كتبه : « هاينريش جراف فون آين زيديل » الحفيد الثانى لـ« بسمارك » •

تأكدت هذه الملاحظة فيما بعد ، فقد كان دكتور « أرنست هادرمان » و « هاينريش جراف فون آين زيديل » من مؤسسى اللجنة الوطنية « ألمـانيا الحرة » •

لم نتعلم فقط كيف نكتب المنشورات ، بل علمونا أيضا ، كيفية طبع المنشورات فى سرية تامة ، فى أصعب الظروف التى تباشر فيها الحركات السرية عملها • ووجد أيضا فى داخل مدرسة الجبهة — التى هى بطبيعة الحال سرية — معمل كيماوى سرى • ولم يسمح لنا بدخوله الا عندما كنا نكلف « بطبع المنشورات السرية » •

كان التعليم باللغة الروسية مرتين فى الأسبوع ، وكنا نتعلم طبع المنشورات بكل الطرق ابتداء من الطرق البدائية (صنع حروف كبيرة من الصلصال ، ويمكن طبع ١٠٠ نسخة فقط بواسطتها) حتى طرق التصوير المعقدة ، التى صممت لاخراج أعداد كبيرة من المنشورات والجرائد — حتى الصور و « الكاريكاتورات » — بحروف صغيرة جدا ولكنها واضحة تقرأ بسهولة •

شرحت لنا كل طريقة بالتفصيل ، حتى كيفية تجهيز الآلات اللازمة ، الى أن كان فى استطاعة كل واحد منا ، أن يقوم بكل المراحل اللازمة لاخراج المنشورات • كانت دراسة هذا الموضوع عميقة ، ولكنه لم يسمح بتقييد ملاحظات فى كراساتنا ، بل وجب علينا أن نحفظ كل شىء عن ظهر قلب •

لم يرسل أحد منا — حسب ما أعلم — بعد حل مدرسة الجبهة الى عمل من الأعمال السرية ، ولهذا فليس لدى المتخرجين اليوم سوى معلومات ضئيلة من تلك الحصص المهمة التى تعلمنا فيها أشياء ، لم نطبقها عمليا قط •

تلقينا محاضرات — بجانب دراسة « مشاكل العصر السياسية » التى مكنتنا من فهم الوضع فى ألمـانيا ، وهيأتنا للقيام بأعمال مستقبلا فى ألمانيا — فى « السياسة الحالية » فى الاتحاد السوفييتى أيضا •

لم يكن موضوع « السياسة الحالية » — كما يظن المرء — نوعا من مقتطفات من الصحف أو نظرة عامة فى الحوادث اليومية فى الاتحاد السوفييتى ، بل دراسة دقيقة لبعض الخطوات السياسية الهامة للحكومة السوفييتية ، التى ينبغى معرفتها و « ابداء الرأى فيها » •

تناولنا بالدراسة — فى مدى العشرة شهور التى قضيناها فى المدرسة من أغسطس ١٩٤٢ م حتى نهاية مايو سنة ١٩٤٣ — تحت عنوان « السياسة الحالية » الموضوعات التالية :

— تكوين ما يسمى : « اللجنة الحكومية العليا لبحث الأعمال الوحشية ، التى يرتكبها المحتلون من الفاشيين الألمانيين » (٤ نوفمبر سنة ١٩٤٢ م) .

— بدء الهجوم المضاد للجيش الأحمر عند « ستالينجراد » (٢٣ نوفمبر سنة ١٩٤٢ م) .

— حركة « فيرابونت — جولو فاتيى » . التى تكونت فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٤٢ م عندما تبرع أحد الفلاحين وهو « فيرابونت — جولوفاتيى » فى المستعمرة الزراعية الجماعية « شتاخانوفس » فى مركز « نوفوبوكرو » فى منطقة « ساراتوف » للجيش الأحمر بمبلغ ١٠٠ر٠٠٠ « روبل » كى يصنع طائرة لابنه الذى كان طيارا فى الجيش . (هذا الاتجاه الذى أعد له باحكام من قبل ، أرسله « جولوفاتيى » فى خطاب الى « ستالين » ثم تلقى خطاب شكر منه ، وبعد ذلك بدأت حركة فلاحى المستعمرة فى دفع مدخراتهم الشخصية لبناء دبابات وطائرات) .

— تطبيق تغيير الزى العسكرى فى الجيش الأحمر (٧ يناير سنة ١٩٤٣ م) وفى الأسطول الحربى (١٦ فبراير سنة ١٩٤٣ م) ، وعليه العلامات الصدرية التى ألغى حملها بعد ثورة عام ١٩١٧ ، كذلك حمل نجم المارشال (٢٨ فبراير)

— الانتصار فى المعركة عند « ستالينجراد » (٣ فبر ير ١٩٤٣ م)

— وناقشنا فى المجموعة الألمانية أيضا تكذيب « تاس » المشهور فى ١٣ فبراير (نفت « تاس » فى هذا التكذيب الأخبار الأجنبية التى تقول بأن الجنرالات الذين أسروا عند « ستالينجراد » لم يعاملوا كأسرى حرب ، بل وجهت اليهم المسئولية فى الجرائم التى وقعت فى « أوكرانيا » . مثل هذه الأنباء — كما شرحت « تاس » — أعدتها جهات موالية للفاشية ، وهى كذب من أولها الى آخرها .

— أخبار نجاح الجيش الأحمر فى هجوم الشتاء ١٩٤٢ — ١٩٤٣ م (١٣ ابريل سنة ١٩٤٣) فى استرداد ٤٨٠ر٠٠٠ كيلومتر من الوطن السوفييتى فى الفترة من ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٢ حتى ٣١ مارس سنة ١٩٤٣ ومن بين المدن التى حررت :

(Wjaslaw, Gshatsk, Woroschilowgrad, Kursk, Rostw und Schachty).

كذلك المدن القوقازية الشمالية :

(Krasnodar, Naltschik, Kislowodsk, Jessentuki, Maikop und Pjatigorsk).

ـ المذكرة السوفييتية فى ٢٨ ابريل عن قطع علاقة الاتحاد السوفييتى بحكومة بولندا فى المنفى (اهتم بهذا الموضوع اهتماما كبيرا لدرجة أنه بعد أن درسته كل مجموعة على حدة دراسة تفصيلية ، ألقى فيه « يعقوب بيرمان » محاضرة عامة لكل الدارسين فى المدرسة) .

درسنا هذا ـ وكذلك حوادث أخرى ـ بالتفصيل فى الحصص المحددة لدراسة « السياسة الحالية » ، وكان على كل دارس فى مجموعتنا أن « يعبر عن رأيه » تجاه هذه الأحداث ـ حتى ولو كان زملاؤه الذين سبقوه فى الكلام قد قالوا كل ما يريد التعبير عنه .

استطاع كل دارس بهذه الطريقة ، أن يتجاوب مع المسائل السياسية السوفييتية بسرعة ، وأن يتخذ الموقف « السياسى الصحيح » ، ويمثل ـ عند غياب التوجيه الرسمى ـ الاتجاه « الصحيح » والدعاية له .

وهكذا أنتج « الاتصال بين النظرى والعملى » هدفا مزدوجا ، ففى الناحية الأولى وجهنا لاستعمال معلوماتنا النظرية فى البلد الذى سنعمل فيه فيما بعد ، وفى الناحية الأخرى تحولنا بطريق الالزام ـ ليس فقط نتيجة لدراسة التاريخ السوفييتى ، بل أيضا نتيجة لمناقشة الأحداث الهامة فى الاتحاد السوفييتى ـ الى مداومة تتبع الأحداث فى الاتحاد السوفييتى ، والى تفسير موقف الاتحاد السوفييتى من الأحداث العالمية ، والدعوة له ، والدفاع عنه .

على الرغم من بعض نقاط الضعف ـ مثل ما كان فى مناقشة « المسائل السياسية » فى ألمانيا ـ فقد كان التثقيف السياسى فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ـ حسب النظرة العامة ـ ممتازا ، وكان مفيدا جدا « للستالينية » .

يظهر لى أن كثيرا من الدوائر فى الغرب ـ وعلى الأخص فى الأعوام الأخيرة ـ يستولى عليها التفكير العسكرى ، لدرجة أنها مليئة بالتقديرات التخمينية عن الذرة والسلاح النووى السوفييتى ، ولم يكرسوا أدنى جهد للمدارس السياسية المنظمة تنظيما رائعا ، حيث يتثقف أعضاء الحزب أيديولوجيا فى « الستالينية » .

❋ ❋ ❋

التقارير الأخباريـــة السرية

كان ثلث وقت الدراسة تقريبا مكرسا للاطلاع ، وكنا نحصل على المراجع اللازمة من المكتبة ، حيث يوجـد عـدد كاف من معظم كتب « ماركس » و « أنجلز » و « لينين » و « ستالين » والكتب الأخرى .

وجدت أيضا تراجم لأهم الكتب ، لكل الدارسين ، بكل لغة ، وكنا نضطر فى حالات قليلة جدا الى الاكتفاء بما كتب بالروسية . فكان يكلف أحد الشبان بترجمة النصوص المطلوبة للزملاء كبار السن .

لم يجد المرء فى المكتبة كتب : « ماركس » و « أنجلز » و « لينين » و « ستالين » والمراجع الحزبية الأخرى فقط ، بل أيضا تقارير اخبارية ، مطبوعة بطريقة التصوير ، وهى بالتأكيد ليست للتوزيع العام ، فقد كانت بعنوان « سرى » أو « سرى جدا » .

وضعت هذه التقارير الاخبارية اليومية فى المكتبة حسب البلاد ، اذ هى عبارة عن أهم التعليقات الاذاعية ومقالات الصحافة الأجنبية ، ويبدو أنها من اخراج جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى « أوفا » ، على شكل سلسلة مرقمة بأرقام مسلسلة ، ولا تقرأ الا فى قاعة المطالعة ، ولا يمكن الحصول عليها الا بعد كتابة استمارة استعارة .

عندما قرأت أحد هذه التقارير ، شعرت وكأن صاعقة أصابتنى ، ومما لا شك فيه أننى تأكدت فى محاضرات أيام الآحاد فى اللجنة المحلية للحزب فى « كاراجندا » أن المحاضرين يعلمون أكثر مما نعلمه من الصحافة السوفييتية ، ولكنى لم أستطع أن أعرف مصدر هذه المعلومات .

والآن ! عرفته ! ..

غير أنى لم أدرك فى ذلك الوقت ، أن هذا النوع من التقارير الاخبارية كان واحدا من أنواع كثيرة ، فقد وجدت سلسلة أخرى وضعت — وأحيطت باجراءات سرية مشابهة — ليقرأها زعماء الحزب فى طبقة القمة ، وكبار رجال الدولة فى الاتحاد السوفييتى . وواضح أنه كان — ولا يزال — هناك تصنيف دقيق للتقارير الاخبارية ، طبقا لمجال نشاط عضو الحزب ، والطبقات القيادية العليا ، فنشأ عن ذلك طبقات هرمية فى تلقى المعلومات .

لا زلت أذكر بالضبط شعورى عندما أمسكت لأول مرة بتقرير اخبارى فى يدى ، فقد اعترانى شعور بالثقة والفخر لأنى أصبحت واحدا

من أولئك القياديين ، الذين نضجوا سياسيا ، لدرجة أنه قد وثق به فى اطلاعه على تلك المعلومات •

فكر الشباب الآخرون أو شعروا بمثل هذا ، وربما كان هذا شعور كل قيادى فى طبقته ، ارتفعت تلك الطبقة أو انخفضت •

كان موضوع التقارير الموجودة فى مدرسة الجبهة ، مختارات من وسائل الاعلام فى الدول الأجنبية ، وبمعنى أدق فى دول الحلفاء ، والدول المحايدة • فكان فيها خطب زعماء تلك الدول ، التى نشر ملخصها فى الصحافة السوفييتية ، أو التى لم ينشر عنها شىء اطلاقا ، والمقالات المهمة من الصحافة الأمريكية والاسكندنافية ، والانجليزية ، والسويسرية ، وتقارير عن الاجتماعات الحزبية لمختلف الأحزاب فى بلاد الحلفاء ، والدول المحايدة ، كذلك أهم التعليقات الاذاعية •

قرأت بشغف كبير ما كتبه « البروفيسور » السويسرى « فون زاليس » ، ومما كان مثيرا للاهتمام أنه جاء فى هذه التقارير بيانات أحزاب شيوعية ، لم تنشر فى الصحافة السوفييتية ، بسبب موقف الاتحاد السوفييتى فى السياسة الخارجية • مثل :

قرارات ومقالات الحزب الشيوعى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، الذى فصل رسميا من جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

خطب ورسائل « ماوتسى تونج » الى جيش العصابات فى العاصمة اليابانية (وكان السبب فى عدم نشرها فى الصحافة السوفييتية ، علاقة اليابان آنذاك بالاتحاد السوفييتى) •

وأخيرا أمكن للمرء أن يقرأ أيضا فى هذه التقرير منشور جيش العصابات ، الذى كان تحت قيادة « تيتو » ، ولم ينشر أيضا فى الصحافة السوفييتية ، لأن الاتحاد السوفييتى حرص آنذاك على المحافظة على العلاقات الطيبة بينه وبين الحكومة الملكية اليوغسلافية التى تكونت فى المنفى ، فى لندن •

وكثيرا ما كانت تصدر طبعات خاصة من هذه التقارير فى أحداث معينة ، حيث ينظم كل ما يتعلق بالحدث من أدلة تنظيما كاملا ، يعطى للقارىء صورة واضحة وشاملة عن ظروف الحدث وملابساته برمتها •

احتوت هذه التقارير على كل شىء ، يجب أن يلم به كل قيادى فى الحزب ، يهتم بالمشاكل العالمية • ونظرا لأنها جمعت بطريقة رائعة ،

وتحتوى على معلومات فى غاية الأهمية ؛ فقد تعودت على قراءتها بانتظام — حتى ولو بخرت من رأسى كل ما يتعلق بالدراسة الاجبارية فى المدرسة .

كانت هذه التقارير لكل المجموعات ، وقد حصلنا نحن — أعضاء المجموعة الألمانية — زيادة على ذلك ، على تقارير مطبوعة بالتصوير « الفوتوغرافى » ؛ ومكتوب عليها أيضا « سرى » ؛ وكان موضوعها مقتطفات من خطابات الأسرى الألمانيين ضباطا وجنودا الى ذويهم فى ألمانيا . ومن المحتمل جدا أنها صادرة من الادارة المركزية للشئون السياسية فى الجيش الأحمر . ظهرت نسختين من هذه التقارير :

١ — مقتطفات من خطابات الضباط والجنود الألمانيين الى ذويهم فى ألمانيا .

٢ — مقتطفات من خطابات الشعب الألمانى الى أبنائه فى جبهة القتال .

ويبدو أن كل الخطابات ، التى وقعت فى أيدى الجيش الأحمر أثناء تقدمه ، قد استغلت بدقة وعناية ، فقد جمع فى التقارير المطبوعة بالتصوير « الفوتوغرافى » الأقوال التى تتعلق بالموضوعات السياسية ، وكنت تجد العناوين التالية :

« أقوال عن الحرب بصفة عامة ؛ التموين ؛ الغارات ؛ العمال الأجانب فى ألمانيا ؛ أحوال أسرى الحرب ؛ العلاقة مع الحلفاء (ايطاليا ؛ المجر ؛ اليابان ... الخ) الوضع فى البلاد المحتلة » .

لم تكن هذه الأقوال مصبوغة بالصبغة الدعائية ، وجمعت أقوال الجميع ، سواء أكانت مع النازية أو ضدها . ولكن كان من النادر — بوجه عام — العثور فى الخطابات على معلومات سياسية واضحة ؛ الا أنه وجد مرة اشارة صغيرة فى هذا الصدد

كتب أحد الجنود الى زوجته فى الوطن : « لقد طفح بى الكيل من هذه الحرب » فكتب الرقيب على هذا الخطاب : « وأنا أيضا » .

كتب تحت كل جملة تؤخذ من الخطابات : اسم المرسل ، واسم المرسل اليه ، والعنوان والتاريخ ؛ وبهذا أمكننا استنتاج تحليلات — وان كان ذلك مشفوعا بالتحفظ — عن الشعور السائد فى أجزاء مختلفة من ألمانيا .

وبالاضافة الى التقارير العامة ، والتقارير التى احتوت على مقتطفات من الخطابات ، فقد حصلنا بانتظام — على صورة تقارير أيضا —

على جميع المواد الرسمية • عن ألمانيا الهتلرية ، كل القوانين التى أصدرتها حكومة « هتلر » ، كل خطب « هتلر » و « جوبلز » و « هيملر » و « شبير » و « بالدور فون شيراخ » ••• الخ ، ومقالات « جوبلز » ، والتعليقات الاذاعية التى كتبها « فريتشى » ، وكل التقارير الهامة الأخرى من الصحافة النازية ، وكذلك كل المقالات الجوهرية ، التى نشرت فى الصحافة المحايدة ، وصحافة الحلفاء عن الوضع فى ألمانيا الهتلرية •

ويبدو أننا لم نكن الوحيدين الذين كانت ترسل اليهم هذه المواد ، لأنه عندما تقابلت فيما بعد — فى مايو سنة ١٩٤٥ م فى برلين — مع بعض كبار ضباط الجيش السوفييتى العاملين فى الادارة السياسية ، تعجبت من غزارة معلوماتهم عن ألمانيا — من المحتمل أنهم درسوا أثناء الحرب مثل هذه المواد التى كانت ترسل الينا •

* * *

دراستنا العسكرية

أعلن بعد وصولى الى المدرسة بوقت قصير ، أننا سنأخذ مستقبلا دراسات عسكرية •

قسم كل الدارسين والمعلمين — من كل الجنسيات — فى الدروس العسكرية الى ثلاث مجموعات :

الأولى : من الأسبانيين والفرنسيين والايطاليين •

الثانية : من الألمانيين والنمساويين ، والألمانيين من مناطق شرق أوروبا •

الثالثة : من البلغاريين والرومانيين والمجريين والتشيكيين والسلوفاكيين •

عين قائد خاص للدروس العسكرية ، بينما أصبح مدرس المجموعة وقائدها فى الدروس الأخرى « جنديا » بسيطا مثل تلاميذه •

كان معظم قواد المجموعات العسكرية والحكمداريين من القياديين فى الحزب ، الذين اكتسبوا خبرات عسكرية فى الحرب الأهلية الأسبانية •

كان حكمدار المدرسة برتبة « جنرال رئيس أركان حرب » ، وهو شاب نمساوى يدعى « مارتن جرونبرج » وكان يعرف فى المدرسة باسم « فيليكس فالكى » •

كان تعيينه فى هذا المنصب أمرا غريبا ، فهو قد جاوز العشرين

بأعوام قليلة ، وليس لديه أى خبرة عسكرية ، ولم يكن فى أسبانيا ، ولكنه تلقى تدريبات عسكرية فى الاتحاد السوفييتى ، وكانت المدة التى قضاها فى هذا التدريب قصيرة • أصبح كثير من المشتركين فى هذه الدورة ، الذين كانوا جنودا وضباطا فى أسبانيا — حتى جنرالات — تحت امرة هذا الشاب •

كانت الدروس العسكرية تشتمل على تدريبات ، وشرح كيفية استعمال السلاح ، و « الاستراتيجية والتكتيك » •

درس لنا « الاستراتيجية والتكتيك » ضابط سوفييتى ، على مسطح من الرمل ، وكان التكتيك على طريقة حرب العصابات ، فكان يجب علينا على الأقل — كما شرح لنا هذا الضابط — معرفة أسلوب قتال جنود العصابات • وبعد دروس قليلة من التدريب على مسطح الرمل ، انطبع فى ذهنى أن هذه التدريبات لا تبعد فى الحقيقة عن محاولتنا وضع لجان شعبية فى منطقة ما على الورق فى حلقات الدراسة •

كان شرح السلاح والتدريب على استعماله أكثر جدية من التدريب على الرمل ، فهنا كان الاستيعاب صعبا جدا بالنسبة لغالبية الدارسين ، الذين لم يمسكوا من قبل قطعة من السلاح فى أيديهم ، اذ وجب علينا فى زمن قصير تعلم : كيفية استخدام القنابل اليدوية ، وزرع الألغام ، وفك أجزاء المسدسات ، والبنادق والأسلحة « الأتوماتيكية » الخفيفة والثقيلة ، فكها وتركيبها بسرعة البرق ، كما وجب علينا معرفة الرتب والعلامات السوفييتية بنفس درجة معرفتها بالنسبة لوطن الدارس •

فرض علينا فى المساء — بجانب الدروس السياسية — حضور دروس « مقوية » فى المعلومات العسكرية عند الرفقاء المتقدمين فى السن ، وكان مدرس هذه الحلقات لمجموعتنا الألمانية ، هو « أوتو » الذى اشترك فى حرب أسبانيا مدة ثلاثة أعوام • وكان أضعفنا فى المواد السياسية والنظرية ، ولكن كانت عنده ذاكرة قوية فى استيعاب أجزاء السلاح •

وكما هو الحال لدى المتخلفين ثقافيا ، فقد حاول « أوتو » التباهى بقدرته فى هذه الناحية ، فكانت دروس التقوية عنده فظيعة ، بالنسبة لنا جميعا ، ولكن لم يكن لنا اختيار ، فقد كنا ملزمين بدراسة كل المقررات •

وأخيرا وصلنا الى الوضع الذى كان فى استطاعتنا فيه البدء بالتدريب على اطلاق النار ، وسرعان ما اقترب يوم الامتحان • أخذنا

الذخيرة وكان علينا اجتياز امتحان اطلاق النار فى الأسلحة التى يحددها الممتحن • ثم فوجئنا بنجاح كل الدارسين تقريبا •

ثم بدأت التدريبات الميدانية العسكرية ، التى أخذت منا ساعات كثيرة — وأحيانا وقت ما بعد الظهر كله — من وقتنا الضيق •

كانت تطلق الصفارة أحيانا فى الساعة الثانية أو الثالثة صباحا ، وعلينا فى مدى دقيقتين أن نكون فى وضع انتباه فى ساحة التدريب •

ذاب تذمرى من دروس « مسطح الرمل » بعد وقت قصير ، وأخذت التدريبات الميدانية فى بادىء الأمر مأخذ الجد ، ولكن بدأ تحمسى يذوب بعد فترة وجيزة ، فذات يوم تلقيت أمرا بأن أقوم بمناورة مع أحد الذين قاتلوا فى أسبانيا •

تسللنا فى منطقة تغطيها الغاب والحشائش المرتفعة ، ثم سألته هامسا : « هل تسللنا صحيحا ، وعلام يتوقف الأمر ليكون صحيحا » ؟

فأجابنى هامسا : « الصحيح ، هو أن تنسى كل هذا بعد أن ننتهى من هذه الدورة مباشرة » •

نظرت اليه مستغربا ، فقال :

« اقفل فمك الآن ، فما نفعله هنا عبث كله • اسمعها منى نصيحة : انس كل هذه القذارة ، لأن الوضع فى الحرب يختلف تمام الاختلاف » •

كان للتدريبات العسكرية ، تمثيلية سياسية جانبية ، فقد فرض علينا عند السير بالخطوة العسكرية ، أن نغنى أغانى روسية ، أو أغانى عسكرية أسبانية • ولكن فى مجموعتنا التى تتحدث اللغة الألمانية ، كنا نغنى أغانى أخرى مثل أغنية « البندقة سوداء سمراء » وأغنية « لورى •• لورى •• جميلات ، بنات ١٧ و ١٨ » •

وذات يوم قال لنا حكمدار مجموعتنا ، أنه لا يجوز لنا بعد اليوم أن نغنى أغنية « لورى •• لورى •• جميلات ، بنات ١٧ و ١٨ » لأنها أغنية فاشية •

فقررنا — نحن الدارسين الملتزمين بالنظام والأوامر — ألا نغنى بعد ذلك الأغنية الفاشية « لورى » •

وعوضنا عنها بتكرار أغنية « البندقة سوداء سمراء » ولكن بعضنا — وأنا منهم — كانوا حذرين ، فشاركوا فى الأغنية بصوت منخفض جدا ، خوفا من أن تكون أيضا أغنية فاشية ، ولحسن الحظ كان القرار أنها ليست « أغنية فاشية » •

* * *

الاسترخاء الطبيعى ومجالس السمر المنظمة

اعتقدت أنى طالب مثالى ، ومجتهد فى تحصيل دروسى بشغف ونهم ، حتى دخولى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • ولكن سرعان ما تبينت أن أكثر الدراسة نشاطا فى أحد المعاهد العليا السوفييتية ، لا تساوى الدراسة فى مدرسة الجبهة ، فلم يكن لدينا راحة سوى ما يقرب من ساعة واحدة بعد تناول الغداء ، ثم باقى الوقت مملوء حتى المساء ، بحضور الحلقات الدراسية والمذاكرة التى تخضع غالبا لرقابة زعيم المجموعة أو مشرف الفصل •

كان عندنا — من الوجهة الرسمية — وقت فراغ بعد العشاء ، ولكن رغم هذا لم يكن من النادر أن ترى معظم الدارسين فى قاعة المطالعة ، حتى الساعة الحادية عشرة والنصف ، أى بمقدار نصف ساعة قبل « نداء النوم » (الذى قدم فيما بعد الى الحادية عشرة أو العاشرة والنصف) • وينتهى اليوم الرسمى بعد « نداء النوم » غير أن للطلبة الحق — تبعا للحاجة الى ذلك — أن يستمروا بعد هذا الوقت فى المذاكرة فى قاعة المطالعة •

سمعنا فى بداية الدورة عن علم الأخلاق ، وكانت القواعد الأساسية قاسية ، لدرجة أن الطلبة القدامى — وحتى المدرسين الصارمين فى تنفيذ قواعد النظام — هزوا رؤوسهم ارتيابا فى صحة تنفيذ هذه القواعد •

صدرت الأوامر بأنه لا يجوز لأى دارس أو مدرس شرب نقطة واحدة من المواد الكحولية ، ولم يستثن من ذلك أيام الأعياد والاحتفالات الرسمية مثل : أول مايو ، و٧ نوفمبر ، وأول العام الجديد •

وأوضحوا لنا بأسلوب لا يحتمل التأويل ، أن أى واحد يحول الحصول — بطريقة ما — على كأس من الخمر ، سيعاقب عقابا صارما • ولم يكتفوا باصدار أوامر التحريم ، بل برروا اصدارها من الوجهة السياسية ، والأيديولوجية ، بواسطة القواعد العامة ، وكذلك بواسطة سرد أمثال مرعبة :

كيف قضى على مجموعات سرية بواسطة كمية صغيرة جدا من الكحول ، وسيق رفقاء الى المشانق ، وأصيبت حركات سرية بضربة قاضية •

صورت لنا هذه الأحداث بصورة واضحة ومؤثرة لدرجة أن المرء يمكن — بعد سماعه هذا — أن يقتنع بأن هزيمة الثورة فى الفترة من ١٩١٨ — ١٩٢٣ م فى مختلف البلاد الأوروبية ، كانت بسبب أن واحدا من القياديين تناول كأسا من الخمر فى ليلة رأس السنة .

التزمنا جميعا — تقريبا — بهذا الأمر أثناء مدة الدورة الدراسية ، ولم ينفذ العقاب الا فى حالتين فقط تجاوز فيهما المعاقبان حدود النظام تجاوزا بسيطا .

لم يحرم علينا الكحول فقط ، بل أيضا كل ما يتعلق بالعلاقات الجنسية ، وقد سبب هذا التحريم « أيديولوجيا » أيضا ، فقد شرح فى احدى المحاضرات :

كيف قضى فى ايطاليا على مجموعة سرية ، لأن قائدها وقع فى حب ، فقد كلف بالسفر بجواز سفر مزور الى باريس فى قطار الساعة الرابعة ، وحرم عليه تحريما قاطعا زيارة أحد قبل السفر ، ولكنه ذهب لزيارة صديقته قبل السفر ، فباغتته الشرطة هناك . وقد ناله هو نفسه ١٥ سنة أشغال شاقة ، ثم اكتشف زملاؤه فيما بعد ، وألقى القبض عليهم .

وفى الواقع ، كانوا يقربون الأبرياء من الوقوع فى الشرك ، فاذا تكرر تجول شخص فى فناء المدرسة ، يبلغ عنه بسرعة ، ثم تبدأ عملية النقد والنقد الذاتى .

لم يكن من السهل المحافظة على هذه القاعدة ، وخاصة الرفقاء والرفيقات ، الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢٣ سنة . وكانوا أكثر من نصف الدارسين فى المدرسة . كان فى المجموعة الايطالية ، وكذلك فى المجموعة الأسبانية ، مجموعة من الفتيات ، جمالهن ساحر . كان حول المبنى الرئيسى عدد من شجيرات الزهور التى تفتحت فى الربيع ، وانبعثت منها روائح طيبة فاحت فملأت الجو عبقا ، وكان من الصعب على فتاة أسبانية الامتناع عن استنشاق هذا العبير الطيب .

وقع فى حبها أحد الدارسين البولنديين ، فقيد الى عملية النقد والنقد الذاتى فأعلن توبته ورجوعه الى التزام النظام .

وقع أيضا « شاركو » ابن « تيتو » فى حب فتاة أسبانية ساحرة ، وأصر على ذلك فطرد من المدرسة .

كان وقتنا كله مشغولا بالدراسة ، ولم يكن لدينا وقت فراغ سوى نصف يوم السبت ويوم الأحد .

سمح لنا أن نعمل كل ما نريده فى نهاية الأسبوع ، ماعدا الشرب والحب ، وذكر أسمائنا الحقيقية ، وذكر أى شى عن حياتنا السابقة أو ذكر شىء عن حياتنا الحالية فى الخطابات . ما عدا هذا فجائز ، فمسموح لنا أن ننام ، ونتجول أو نلعب كرة القدم أو نتسامر ، أو نغنى أغانى جماعية .

كانت أمزجة الجميع معتدلة فى أحد أيام الآحاد بعد الظهر ، تواجد الشبان من المجموعة الفرنسية والأسبانية والايطالية والمجموعات الثلاث الذين يتكلمون اللغة الألمانية ، فى احدى الحجرات ، وبدأوا يغنون أغانى عسكرية ثورية ، ثم تحولت الى أغانى شعبية ، وعاطفية .

« من يعرف منكم أغنية عاطفية أخرى » ؟ صاحت فتاة أسبانية بهذه الجملة ، دون أن نشعر بأنها كونت « أوركسترا » بها .

فصاح فرنسى : « أنا أعرف كثيرا » فرجاه الجميع فى أن يغنى شيئا مما يعرفه ، فلم يتردد ، وقف على الكرسى ، وغنى أغانى حب ، ومقطوعات عاطفية ، وكون الأسبانيون فرقة « كورال » خلفه ، وبعضهم كان يضرب الألحان بأصابعه وفمه .

اندفعت الفرقة معه ، واحد يمط فمه ليتلاءم مع النغم ليصاحب الفرنسى فى الأغنية ، والآخر أحضر مشط الشعر ليقوى فرقة المصاحبة ، وبعد دقائق وجدت آلات أخرى .

وقبل أن نفيق من الاندماج مع هذه الأغانى الفرنسية ، تكونت فرقة رومانية أسبانية .

وفجأة دخل « ميخايلوف » الحجرة فأحاط به الأسبانيون بسرعة ، وبدأوا يقولون له كلاما باللغة الأسبانية ، كانوا يتكلمون بسرعة عجيبة ، أومأ برأسه ، وانفجر غاضبا ، ثم أخبرنا الآخرين بما حدث .

كان مسموحا لنا أن نرقص فى مساء كل سبت على وقع أنغام فرقتنا التى كوناها من بيننا ارتجالا .

تطورت الفرقة ، وكان قائدها بالطبع الفرنسى ، وظهر أن لا آخر لما يحفظه من أغانى . وعلمنا فيما بعد أنه كان مغنى عاطفى فى احدى مقاهى باريس . كنا نفاجأ كل سبت بأغانى جديدة من بلاد كثيرة ، وكانت تغنى كلها — تقريبا — باللغة الفرنسية والأسبانية ، لأنه لم

يكن بيننا انجليزى ولا أمريكى ، وليس بين المجموعة الألمانية والنمساوية الا عدد قليل من الأغانى العاطفية • أما المجموعات الأخرى فكان فيها عدد أكبر من الموهوبين فى الغناء • فقد حدث مرارا أن اتجهت بعد الرقص احدى الأسبانيات أو المجريات أو التشيكيات أو البولنديات انى الفرقة وأسكرتنا بأغنية عاطفية جديدة •

ظهر أنه كان من بيننا أخصائيون بجانب مغنى المقاهى الفرنسى ، مثل : « خونيتا » من برشلونة وكانت رائعة فى أداء :

(Tango yo te quiero mucho)

كانوا كلهم مسرورين عندما كانت تغنى الا أنا ، لأنى كنت أحب الرقص معها مدة أطول ، ولكن فى حدود المسموح حتى لا أقع فى مأزق النقد الذاتى •

سألتها مرة : « أنت رائعة فى الرقص والأغانى ! أين تعلمت هذا » ؟

— « أوه ! ليندين ! ألا تعلم ، أين نحن » ؟

ثم تبسمت ، ولم تجب على سؤالى •

كانت أمسية الرقص فى نهاية الأسبوع بالنسبة لنا استجماما ، واسترخاء للأعصاب المشدودة طول الأسبوع ، فقد كان الوقت الوحيد فى الأسبوع ، الذى نتحرر فيه أفكارنا من الموضوعات السياسية والعسكرية •

وسرعان ما تحولت أمسية الرقص الى « أمسية منوعات » ، يظهر على المسرح أحد الدارسين أو مجموعة تنشد الشعر ، أو تغنى ، أو ترقص أو تمثل احدى المسرحيات الصغيرة • وكان الأسبانيون أكثرنا نشاطا فى هذا المجال أيضا • وشيئا فشيئا تعلمنا كل الأغانى الأسبانية ، بينما لم نتعلم من الأغانى الأخرى الا آحادا •

كان على فرقتنا بالاشتراك مع المواهب الأسبانية فى الرقص والغناء أن تزيد من نشاطها وتوسع برنامجها • اذ بدا أن قائد المدرسة أدرك أن استرخاء الأعصاب المشدودة عن طريق اقامة الحفلات أمر ضرورى ، وبناء عليه فقد توصل الى « قرار » وعقب هذا مباشرة كان هناك اجتماع لمعالجة ما يسمى « الاسترخاء » • ألقى فيه « كلاسنر » كلمة جاء فيها :

« ••• أخطار أعباء الدراسة الثقيلة ••• لا يمكن أن يجلس الرفيق فى قاعة المطالعة حتى الساعة الثانية صباحا •• العبء الزائد عن الطاقة لا يفيد أحدا •• • كذلك وقت الفراغ من الأمور الضرورية ••• أغانى جماعية ••• راحة منظمة » •

وهكذا أصبح لدينا « راحة منظمة » وبالأخص على طريقة « أمسيات سمر » و « مقابلات استجمامية » جماعية •

حدد بالضبط أين ومتى نتقابل لنقضى أمسيات سعيدة جماعية ، وماذا سيقدم فى تلك الأمسيات : « ان من الأمور المهمة أن يجتمع الدارسون خارج حجرات الدراسة • ولا يتطلب منا النضال فى ألمانيا ثقافة سياسية وادارية فحسب ، بل أيضا الاتصال بالشعب الألمانى ، الذى يتطلب التكيف بعاداته وتقاليده ، وتحقيقا لهذا الهدف ، يجب علينا حفظ أغانى ألمانية لنغنيها مع المجموعة فى « أمسيات السمر » • هكذا قال لنا « كلاسنير » •

* * *

نجح تحويل النظرى الى عملى فى هذه المرة ، فقد كنا نجتمع بانتظام فى حجرات الحلقات الدراسية ، أو فى الهواء الطلق ، اذا كان الجو مناسبا • اتخذنا مقاعدنا منتظرين التعليمات ، ولم ننتظر طويلا ، فبعد تجمعنا مباشرة ، وصلتنا نصوص أغانى شعبية ألمانية ، غناها أمامنا الرفقاء كبار السن ، ورددناها — نحن الشبان الذين لم نسمع حتى الآن أغانى شعبية ألمانية — وراءهم فقرة فقرة •

وذات يوم جلسنا — بعد أن تمنا بفك البنادق واعادة تركيبها ، وبعد أن سمعنا محاضرة عن الثورة الصينية — نغنى أغنية ألمانية • كنا نغنى بانتظام ، وبتلك الجدية التى فرضت علينا فى المدرسة ، ولم تكن الجدية فى هذا المقام فى وضعها الصحيح •

ثم سمعنا القائد يقول :

« أيها الرفقاء ! يجب أن يكون الغناء أكثر مرحا وسرورا ، ولا ينبغى أن يكون بهذه الجدية •• » •

توقفنا فيما بعد عن حفظ النصوص عن ظهر قلب ، وأصبحت « أمسيات السمر » ثقيلة فى المجموعة الألمانية ، ففى كل مرة كنت أنتظر بفارغ الصبر نهايتها ، وكنت أشتاق الى الرجوع الى الحلقة الدراسية ، أو الى المكتبة ، ثم كرروا لنا النصيحة :

« اتصالنا بالشعب الألمانى سيقوى ويشتد بواسطة هذا الطريق » فاندفعنا بحماس الى واجبنا الجديد ، وللأسف تأكدت فيما بعد أن الأغانى الشعبية الألمانية التى حفظناها بعد جهد جهيد فى « بشكرين »

لم تساعدنى فى الاتصال بالشعب الألمانى ، لأنى عندما رجعت فى مايو سنة ١٩٤٥ م الى برلين المحطمة من أثر ما ألقى عليها من القنابل ، لم أجد ألمانيا يهتم بما جئته به : بالأغانى الشعبية •

ولحسن الحظ أعلن عن أسلوب جديد يطبق فى « أمسيات السمر » وهو ألا يقتصر قضاء الأمسية على سماع أغانى شعبية ألمانية محفوظة ، بل يضاف اليها : أن يحكى الرفقاء كبار السن للشبان عن خبرتهم •

لم تكن هذه الحكايات — باستثناء عدد قليل — سوى تعبير عن آراء الشخص ومفاهيمه ، ولهذا لم تخرج عن كونها نوعا مقنعا من المحاضرات ، وعلى الرغم من أننا سمعنا الكثير من المحاضرات ، فقد اشتركت فى سماع هذه الحكايات لأنها — على الأقل — أحسن من « الغناء المنظم اداريا » •

وسرعان ما حلت أمسية ، لا ينسى ما حدث فيها ، فقد حكى « برنارد كونين » تاريخ حياته المشوق ، فتحدث عن ثورة ١٩١٨ م ، وعن الاضطرابات فى وسط ألمانيا عام ١٩٢١ م وعن عام ١٩٢٣ م ، وعن احتفالات مايو التى شاهدها فى بلاد مختلفة • ومما لا شك فيه أن سرد الاحداث لم يكن سهلا عليه فى بعض الأحيان ؛ لأنه — طبقا لأقواله — كان ينسجم دائما مع الاتجاهات السياسية الجديدة ؛ ويقوم بالأعمال التى تتطلبها الأحداث • ولم أعلم شيئا عن هذه الاحداث فى ذلك الوقت ، ثم تحول حديثه الى (Brandler) و « التروتسكيين » فتحدث عن ذلك بالضبط كما كتب فى الدروس •

وأحيانا كان يكلف — بجانب محاضرنا — أحد الدارسين كبار السن بالحديث عن تجاربه ؛ ولم أنس ما قاله أحد الرفقاء الكبار ، الذى جاء الى الاتحاد السوفييتى فى نهاية عام ١٩٤٠ م أى قبل اندلاع الحرب بوقت قصير ، لم ينضم للحزب رسميا ، بل يبدو أنه قام بمهمات خاصة • استمر يحكى ثلاث ساعات : كيف استطاع أن يتغلب على العقبات التى صادفته ، دون مساعدة من التنظيم الحزبى السرى ، فهو لم يسمح له بالاتصال بهم •

كان الوحيد فى مجموعتنا الذى كانت عنده الشجاعة للتعبير عن نقده فى مدرسة الجبهة مثل : الدروس العسكرية « مارتن جرونبرج » الذى عين رئيس أركان حرب ، دون أن يكون لديه أى فكرة عن الشئون العسكرية •

وكان يشعر بأنه فى مأمن ، لأنه اعتقد أن هناك ظهرا يحميه ، ولكن خاب ظنه ، فقد طرد بعد أيام قليلة من المدرسة .

هل جاوز حدود المسموح به فى حكايته ، فصرح بأشياء لا يجوز ذكرها ؟ هل كان السبب فى طرده تصريحه بالنقد ؟ هل حدث شىء لمن يحميه ؟

أخبرنا « كلاسنير » بطريقة مختصرة جدا أنه طرد من المدرسة ، فهو لم يرتبط بالحزب ارتباطا صحيحا قط . وكان دائما فى وضع المشكوك فيه .

قابلته بعد سنة فى « أوفا » فرأيت فظاعة حاله ، وعرفت ما معنى أن يصبح المرء فى الاتحاد السوفييتى « معلقا » بالحزب .

* * *

نقدى الذاتى الأول

شعرت فى صيف عام ١٩٤٢ م فى « أوفا » بالفرق بين حياة القياديين من الطبقة العليا وبين الانسان العادى . وصار واضحا فى ذهنى أن الأشياء التى يستطيع المرء كطالب أو عضو فى منظمة الشباب أن يفعلها أو يتحدث عنها ، لا يسمح له بها فى المحيط الحالى الذى أعيش فيه . عزمت عند وصلى الى « كوشنارينكوف » أن أعود نفسى على طريقة الحياة الجديدة ، وتتلخص المسألة فى عدم ذكر شىء عن ماضى حياتى ، وعدم ذكر اسمى الحقيقى اطلاقا ، وليس الالتزام بهذا أمرا بالغ الصعوبة .

كان أصعب من هذا بكثير شيئا آخر ، لم يقله أحد لى ولكن ينبغى على الآن ادراكه .

فكل كلمة تفسر سياسيا .

وكان هذا جديدا بالنسبة لى حتى الآن .

كان يكفى لطالب وعضو فى منظمة الشباب أثناء الأوقات العادية — ويستثنى من ذلك طبعا سنوات التطهير ١٩٣٦ — ١٩٣٨ م — لو كان ملتزما « الخط الصحيح » فى المجال السياسى ، ألا يعبر عن الأشياء التى لم تتناولها « برافدا » بالشروح والبيان ، وأن يشرح المفاهيم السياسية لدرجة أن السامع لا يمكن أن يفهمها — وحتى ولو

كان أغبى انسان ، أو كان من الذين يتهمون الناس جزافا — على أنها تصريح بمعارضة الاتحاد السوفييتى • وكان بجانب هذا مواضيع بعيدة كل البعد عن السياسية ، يستطيع المرء أن يتحدث فيها حسبما يشاء • لم أدرك فى الأسابيع الأولى فى المدرسة الفرق بين حياتى الماضية ، وحياتى التى بدأتها توا ، فتحدثت فى المجالات التى ليست عليها قيود ، وقلت فيها كل ما فى ذهنى • وفعل هذا أيضا الرفقاء الآخرون من الشبان فى مجموعتنا •

لقد كنا جميعا متفقين — جوهريا — مع النظام ، ولكن لم يمنعنا هذا — نحن التلاميذ — من نقد بعض المظاهر هنا وهناك ، وأن نسخر حتى من أمور فردية ، وبنوع خاص لم يمنعنا هذا من أن نكون أحرارا كلية وغير مقيدين بشىء فى المجالات غير السياسية • وهكذا كما هو حال الشبان فى سن العشرين فى كل مكان من أرجاء العالم • ولكن كان هذا محرما هنا ، واستخدمت عملية النقد والنقد الذاتى لعقاب من ارتكب هذا الجرم ، وكنت أول الضحايا •

كنا نكلف — فى غالب الأحيان — بأعمال عضلية ، ومعظمها كان لتنظيم وتنسيق المنطقة المحيطة بالمدرسة ، وأحيانا كنا نقوم بأعمال زراعية وغير زراعية خارج منطقة المدرسة •

نودى علينا للتجمع ذات يوم فى فترة الظهيرة :

« أجلت دروس اليوم التى تلقى بعد الظهر ، لأن مجموعتنا استدعيت لتفريغ بضاعة من احدى المراكب البخارية » •

وبعد نصف ساعة كنا على ظهر السفينة ، وكانت محملة بجوالات من الدقيق ، ومطلوب تفريغها حالا •

كان « أوتو » يسخر منا نحن الشباب ، لأنه يحمل جوالين ، بينما نحن نحمل جوالا واحدا ، فتضايق من هذه السخرية : شاب صغير ، يعانى من قصر النظر ، واسمه « شتيفان » ، ولكن كان عنده الشجاعة للرد على « أوتو » ثم تطور الأمر الى معركة ، حيث ضرب « أوتو » « شتيفان » فى وجهه بقبضة يده ، وكنت واقفا بجانبه ، فانفجرت غاضبا •

وفى اليوم التالى — بعد الظهر — أخبرنا نحن الثلاثة بأننا يجب أن نذهب الى المدير فى الساعة السابعة مساء •

ذهبت الى المدير دون أن يعترينى أى شعور بالذنب ، لأن المفروض

أن « أوتو » هو المذنب ، ولن أكون سوى شاهد فقط ، ولكن المسألة سارت على وضع آخر .

عندما دخلت حجرة المدير أصابنى ذهول : فقد وضعت منضدتان احداهما بجانب الأخرى على شكل منصة فى وسط الحجرة . وجلس بجانب المدير الرئيس العسكرى ، الذى لم نره الا نادرا ، ولم أسمعه يتكلم الا فى حالات أشد ندورة من رؤيته . كذلك كان فى الحجرة أيضا : احدى عضوات الحزب ، قيل انها تعمل فى سكرتارية « ديمتروف » و « باول فانديل » ، والذى أدهشنى هو وجود « ايمى شتنسر » بينهم أيضا ، وهى فتاة لم يتجاوز عمرها التاسعة عشر عاما ، زرقاء العينين ، ولا تفهم فى النظريات السياسية شيئا ، ولكنها ممتازة فى تكوين اللجان الشعبية .

خيم على الجو مظاهر الجدية والرسميات ، كما كان فى محاكم التفتيش . وكان هنا عند الحائط « كنبة » وكرسيان ، قيل لنا بلهجة باردة ، وبصوت منخفض جدا :

« اجلسوا على هذه الكراسى » !

ثم خيم الصمت — مرت دقائق عديدة ، ولم يحدث شىء ، فأحسست بالانقباض على الرغم من أنى مقتنع بأن المسألة لا تمسنى اطلاقا .

وبعد مرور بعض الوقت ، قال « ميخايلوف » بنبرة لم أسمعها منه قبل ذلك : « أعتقد أننا نستطيع أن نبدأ الآن » .

بدأ « باول فانديل » بالكلام ، فشرح ظروف « الحالة » كلها ، وفجأة تأكدت أن المشاجرة عند جوالات الدقيق ، اعتبرت واقعة سياسية خطيرة ، ثم زادت المفاجأة عندما أزاح « كلاسنير » فى تقريره الذنب من « أوتو » المعتدى ، ووضعه على « شتيفان » المعتدى عليه ، فقد أدين بأنه استفز « أوتو » .

سمعت « باول فانديل » (كلاسنير) يقول : « .. ويبدو أن من الضرورى أن نبحث عادات رفقائنا الشبان حديثى السن » وكرر ذكر اسمى كثيرا فى تقريره

استمرت حدة الكلام فى ازدياد مطرد ، ولكن لم نصل الى حد الزمجرة والصياح ، بل كان كلاما باردا ، واقعيا ، ولكن صياغته حادة وعنيفة .

ثم تحدث الآخرون واحدا بعد الآخر ، ولكنى كنت أتابع الكلمات

بصعوبة ، وسمعت مرارا وتكرارا الكلمات : « تصرف غير بلشفى » ، « نقص فى الجدية » ، « عجرفة » .

جلست كالمشلول ، فلم أشاهد مثل هذا قط ، وكان أسوأ شىء هو السكون الكلى ، الذى يتحول اليه كل من فى الحجرة ، فترات السكون ، التى لا يتلفظ فيها بشىء ، ودون أن يخرج أحد لمدة ثانية واحدة من هذه الحجرة التى أحس بأن عليها ثقل جبال الألب .

لم أستطع التفكير ، ما معنى هذا كله ؟ والى أين نحن سائرون ؟ ولماذا لم يقل أحد شيئا قط ؟ ، ماذا سيحدث الآن ؟

مضى الآن ساعة ، ولم يقولوا شيئا محددا عما ارتكبته من ذنب ، ورغم هذا فقد أحسست بأنى مذنب ، شعرت بأنى ارتكبت جريمة ما ، ولكن عدم علمى بهذه الجريمة التى ارتكبتها ، جعلنى كالغريق الذى ليس هناك من يساعده على النجاة .

لم أعلم آنذاك أن ما سمعناه لم يكن سوى تمهيد ، وبعد فترة راحة قصيرة — تلك الدقائق الفظيعة التى يسكت الجميع فيها ، فلا يتلفظون بكلمة واحدة — سمعت هذه الكلمة :

« أعتقد أن الرفيقة « ايمى » تريد أن تقول شيئا » .

وقفت الفتاة ، ولكنها لم تكن عاجزة ، كما فى حلقات الدراسة ، عندما تعجز عن الاجابة على أسئلة سياسية ، بل وقفت هادئة ، يعتريها الشعور بالسلطة التى أسبغت عليها الثقة بالنفس ، فقلدت نغمة من سبقوها فى الجدية والرزانة .

كان أمامها ورقة مكتوب فيها بعض النقاط ، وبين الحين والآخر كانت تلقى نظرة على الورقة لتواصل حديثها ، فقد كانت تلك النقاط هى بنود اتهام ضدى .

كانت أعصابى ثائرة ، فلم أستطع متابعة كل ما قالته ، وشيئا واحدا لم أنساه حتى اليوم : دقة تقديم الاتهام ، فقد سجل كل ما نقوهت به منذ يوم وصولى الى المدرسة ، مشفوعا بالزمان والمكان تسجيلا دقيقا . فعلى سبيل المثال :

« فى يوم ٢٣ سبتمبر فى الساعة العاشرة والنصف صباحا عندما خرجنا من حجرة الدراسة قال « ليندين » ..... » .

« فى ٢٧ سبتمبر فى الساعة ٦ مساء عندما كنا ذاهبين لنغنى أغانى شعبية جماعية علق « ليندين » ..... » .

كانت كل هذه الأشياء لا أهمية لها لدرجة أنه لو سمعها شخص ،

ليس عنده أى فكرة عن مثل هذه المدرسة ، لاستغرق فى الضحك ، فلم يكن لها علاقة بالسياسة اطلاقا .

وفجأة رفعت « ايمى » صوتها :

« عندما أعلن عن محاضرة عن « الكسندر نيفسكى » قال لنا « ليندين » انه يهتم بهذه المسألة ، وكان مشغولا بدراستها مدة طويلة فى قسم التاريخ فى « كاراجندا » وهو ينتظر بفارغ الصبر ، لينظر عما اذا كان المحاضر سيأتى بجديد فيها » .

ظهرت علامات الجد على وجوه هيئة الادعاء ، فكتبوا بسرعة ملاحظاتهم ، وهزت احدى السيدات الجالسات معهم على المنضدة رأسها متأسفة . يبدو أن هذا التصريح ذنب له وزنه .

ثم تلا ذلك تلاوة أقوال صدرت عنى ، حاولت بكل جهدى أن أحتفظ فى ذاكرتى بكل بنود الاتهام لتى تتلى ، ولكن كان الجو قد أثر على نفسيتى فلم أنجح فى ذلك .

« عندما عدنا من التحطيب فى ٦ أكتوبر فى الساعة السادسة والنصف مساء ، ومر علينا بعض الرفقاء من أعضاء المجموعة الأسبانية ، قال « ليندين » لـ« فورستر » ان فى هذه المجموعة فتاة رائعة الجمال » .

انهمك الأعضاء الجالسون على المنضدة فى كتابة الملاحظات مرة أخرى ، وبدا من علامات التأثر على وجوههم أن هذا أيضا ذنب كبير .

انتهت تلاوة بنود دعوى الاتهام ، ثم اعتدل « أوتو » على الكرسى ، وبدا أنه فوجىء بهذا كله . وكان « شتيفان » يلتفت — وهو جالس بجانبى — الى بين الحين والحين ، والخوف يملأ عينيه ، على الرغم من أن اسمه لم يذكر الا نادرا .

ثم تحدثت المرأة التى هى من سكرتارية الجبهة ، وتلاها فى الحديث الرئيس العسكرى ، و« ميخيلوف » ولكن لم يذكروا فى حديثهم تلك الدعاوى التى قرأتها « ايمى » الا عرضا فكانت كلماتهم نقطة البدء للاتهام .

واليوم ، عندما أعود بذاكرتى الى ذلك المساء الذى جرت فيه عملية النقد والنقد الذاتى ، يسهل على التعرف على مظاهر هذا النظام ، فالأشياء التافهة والأمور العرضية التى لا تتعلق بالسياسة اطلاقا ، بنفخ فيها حتى تكبر وتصير مثل الجبال وتحرف حتى يصبح لها الفكر السياسى والطابع السياسى . ثم بعد ذلك يسوى (بدون صياغة) بين

الفكر السياسى وبين العمل السياسى ، ويستنتج من هذا نتائج يشيب لها الولدان •

طبق هذا تقريبا كما يلى :

قال الرفيق « ليندين » أنه درس مسألة « الكسندر نيفسكى » فى « كاراجندا » ثم قال انه ينتظر بفارغ الصبر عما اذا كان المحاضر سيأتى بجديد •

ما معنى هذا ؟ معناه أنه يعتقد أنه يعلم كل شىء ، وأنه ليس من الضرورى أن يدرس • والغطرسة واضحة فى هذا الكلام ، تلك الغطرسة التى قذفت بكثير من القياديين فى الحزب الى الحضيض •

ثم تليت الأمثلة على ذلك — أمثلة فظيعة تشيب لها الرؤوس — من حوادث المقاومة السرية •

كيف أهمل قياديون بسبب الغطرسة اجراءات الأمن ، وأوقعوا باهمالهم رفقاء فى أيدى الأعداء •

وكيف كانت الغطرسة سببا فى الاستهانة بالعقبات التى تعترض طريقهم ، فلم يستطيعوا تأدية واجباتهم •

نعم اذا فكر المرء فى هذه الأحداث حتى نهايتها يتبين له أن مثل هؤلاء القياديين — بدون تحيز فى الحكم — شركاء فى اغتيال رفقاء أجلاء ، وأنهم بغطرستهم قد خدموا أعداءهم •

وكان مثل هذا التفسير بالنسبة للجملة التى قلتها عن الفتاة الأسبانية فى المدرسة •

فليتخيل المرء : « أثناء الحرب ، حيث يدور صراع الحياة والموت ضد الفاشية المجرمة ، وحيث يعطى الشعب السوفييتى كل ما يملك للنضال من أجل الحرية ، ليحرر وطنه ، يعطى الحزب للرفيق « ليندين » فرصة — فى هذه الظروف الحرجة — للدراسة كى يعد نفسه للنضال الذى ينتظره • وللحزب الحق فى أن يطلب من « ليندين » تكريس كل جهوده فى هذا الاتجاه الذى رسم له ، ويستفيد من كل دقيقة للدراسة ، وأن يكون تفكيره كله مركزا على النضال القادم • ولكن فيم يفكر « ليندين » ؟ يفكر فى فتاة أسبانية جميلة ، ويضع اهتماماته الخاصة ومصلحته الذاتية فوق مصلحة الحزب وقد حدث مثل هذا أيضا فى الماضى » •

ثم تليت أمثلة أخرى ، كل مثال يفوق الآخر فى المأساة والفظاعة وهز المشاعر •

كيف نسى قياديون واجباتهم بسبب الحب ؟ فلم يقعوا هم وحدهم فى أيدى العدو ، بل كانوا سببا فى وقوع كل المجموعة السرية فى أيدى رجال الأمن فى البلد ؛ مسرح عملياتهم .

ثم تليت أمثلة على ذلك من ايطاليا وألمانيا الهتلرية ، وأسبانيا ، وبدا ذلك كله منطقيا لدرجة أنى شعرت بأنى فعلا مذنب ، باقتراف أشياء شبيهة بما ورد فى هذه الأمثلة .

كان التأثير النفسى قويا ، لأنى لم أشاهد مثل هذه المسرحية قط ، فقد كنت طالبا مثاليا فى المدرسة السوفييتية ، وحصلت مرتين على شهادة بأنى تلميذ ممتاز وكانت نتيجة امتحاناتى كلها ممتازة ، وأهلتنى للحصول على منح دراسية دائما .

أصابنى هذا الاتهام الفظيع بضربة قاتلة ؛ لأنه لم يحدث لى قط نقد أو نقد ذاتى ، ولم أسمع حتى الآن فى هذه المدرسة بالذات ، أى ملاحظة نقد على تصرفاتى .

وأخيرا انتهت كلمة « ميخايوف » التى كانت آخر كلمة تلقى من هيئة الادعاء فى هذه الجلسة ثم سمعت هذه الجملة :

« الكلمة الآن للرفيق « ليندين » .

أذكر أنى قلت كلاما غير متماسك ، وأنى اعترفت بأن النقد صحيح ، وسوف أحاول اصلاح نفسى ، لقد كان تلعثما ، وتلجلجا أكثر منه خطبة متماسكة العناصر والجمل .

ثم جاءت كلمة الختام ، ومرة أخرى تحدث كثير منهم . لم تختلف النغمة : كان بيان « ليندين » تهربا ، فهو لم يفطن لأصل لمشكلة اطلاقا ، وقد دل على سطحيته . اذا كان « ليندين » مستعدا الآن فى هذا المساء ، أن يدلى بهذا الاعتراف فالاعتقاد فى ذلك سابق لأوانه » .

ثم تلا ذلك أمثلة أخرى ، أمثلة عن قياديين أقيمت ضدهم دعاوى ، بسبب أخطاء ارتكبوها ، فاعترفو بخطئهم بسرعة وبسهولة ، ولكنهم بعد ذلك استمروا فى ارتكاب مزيد من الأخطاء ، فساروا فى طريق هلاكهم .

وفجأة — ولم أكن أنتظر ذلك اطلاقا — سمعت صوت « ميخايلوف » يقول : « أعتقد أننا نستطيع أن ننهى الاجتماع الآن » .

لم يتخذوا قرارا ولا اجراءا ، ولم أتلق أيضا أى تعليمات بما يجب على الآن عمله . لقد انتهى الاجتماع الفظيع القاسى فجأة كما بدأ فجأة .

كان الليل قد انتصف ، وساد السكون المنزل ، فقد استغرق الجميع فى نوم عميق ، صعدت السلم الخشبى ببطء متوجها الى حجرة النوم ، لم أستطع النوم ، وظللت ساعات ، وأنا أتقلب يمينا وشمالا فى السرير ، لم أفهم ما دلالة هذا كله ؟ هل سأطرد من المدرسة ؟ من منظمة الشباب ؟ هل سيعاد ترحيلى الى « كاراجندا » ؟

هيج أعصابى مصيرى المنتظر ، واحساسى العميق بالذنب ، والمأزق الذى وقعت فيه الآن • لقد كنت مستعدا حقا للاعتراف بذنبى ، وقد فعلت ذلك ، وكان هذا خطأ أيضا • ماذا أفعل الآن ؟ لم أشعر قط — حتى فى صحراء « كازاخستان » — بمثل هذه الورطة ، كما فى هذه الليلة فى مدرسة جبهة الأحزاب للشيوعية العالمية •

كانت الدراسة عادية فى اليوم التالى ، فلم يظهر تغير شىء فى المدرسة ، ولم يعلم أحد — هكذا بدا لى — بما حدث فى مساء أمس فى عملية النقد والنقد الذاتى فى حجرة المدير •

كانت متابعة الدروس ثقيلة ، ولكنى علمت أن تصرفى بعد مساء النقد والنقد الذاتى سيرصد ، ويراقب مراقبة أكثر دقة من ذى قبل • ولهذا واصلت كتابة الدروس وراء المحاضر ، ولكنه لم يكن سوى عمل آلى ، فقد كان ذهنى معلقا بمساء أمس ، وبما سيحدث مستقبلا ، اذ كان واضحا لى أن المسألة لم تنته بعد •

جلست « ايمى » بجانبى ، وكان باديا عليها عدم الاهتمام اطلاقا • باغتتنى الأفكار فجأة بأن طريقتها فى تسجيل الحوادث بدقة ، كانت مبغضة وكريهة جدا •

واستغرقت فى التفكير دون أن أشعر : هل كان هذا هو الطريق الصحيح ؟

هل تكون مثل هذه الطريقة ضرورية ، للصعود الى الطبقات القيادية فى الحزب ؟

فمما لا شك فيه — هكذا فكرت — أنى ارتكبت أخطاء كثيرة ، ومن الطبيعى أن الحزب ليس له الحق فقط ، بل من واجبه أيضا تقويم خطئى فى المدرسة للتغلب على نواحى الضعف عندى • ولكن هل ينبغى أن يكون بهذه الطريقة ؟ فى جو أشد فظاعة من لحظات اصدار حكم قاس ؟ ألم يكن فى الامكان اتباع طريقة أخرى للتقويم وابداء النصيحة ؟

أفزعتنى هذه الأفكار ، ولكنها لم تعد تزيد فى الضغط على نفسيتى •

أليست أحوال المدرسة هى طابع الجو الذى يعيش فيه رفقاء الحزب ؟ ثم تذكرت أفكار أخرى معارضة ، مرت بى سابقا فى زمن حركة التطهير ، عادت الى ذاكرتى مواقف معارضة النظام ففزعت من نفسى ، ماذا يمكن أن يحدث لو صرحت بهذه الأفكار ؟

قررت فى نفسى أن أكون أشد حذرا فى أقوالى مستقبلا ، ولن أتلفظ الا بما هو ضرورى جدا • فسوف أفكر فى كل جملة ، بل فى كل كلمة قبل التلفظ بها • ولكن اعترانى اليأس مرة أخرى :

هل ينبغى أن يكون هذا ؟ هل تكون هذه صراحة ؟ ولكن ماذا ينبغى أن يكون اذن ؟ كيف يمكن أن يكون المرء صريحا ، اذ فسرت كل كلمة عادية — من الوجهة الواقعية — على أنها تصريح بالعداوة ؟

فزعت مرة أخرى من أفكار الزندقة ، فقد كان اعترافى بالذنب مساء أمس اعترافا لا نفاق فيه ، اذ كنت مقتنعا بأن النقد اللاذع ، الذى وجه الى أمس ، له ما يبرره ، وكنت عازما حقيقة على اصلاح نفسى ، ولكن تبخر هذا الاخلاص الذى كان طابع اعترافى بالذنب •

لو سارت عملية النقد فى مساء أمس ، على خلاف ما سارت عليه ، لصفى اعترافى كل شىء ، وربما لم تدر فى ذهنى أفكار « الزندقة » ، أو على الأقل ربما تأخر ظهورها •

ربما أمكن تحويلى دون ادراك فى هذا المساء — كما هو حال الثقيليين من الروسيين وغير الروسيين — الى أداة « للستالينية » ، ولكن كانت النتيجة عكس ذلك •

مما لا شك فيه أنى تربيت فى النظام ، ولا زلت أعيش فيه ، ولهذا لا أرغب فى شىء غير النصر للسلاح السوفييتى • ولا زلت أعتقد اعتقادا جازما أن الاتحاد السوفييتى سيحقق الاشتراكية ، وأن كل الظواهر التى تبدو لى أنها غير مقبولة ليست نتيجة للنظام ، بل تفسر على أنها من الظواهر المصاحبة لتحويل بلد متخلف مثل روسيا الى النظام الاشتراكى •

لقد رأيت الأخطاء والعيوب بوضوح آنذاك ، ولكن لم أكن أعلم أنها مرتبطة ارتباطا منطقيا بالنظام ، لم تكن بالنسبة لى آنذاك سوى أنها صادرة عن قياديين محليين ، حادوا عن الطريق ، أو أنها أمراض أطفال فى مجتمع جديد ، أو اجراءات ، حتم التخلف اتخاذها ، أو ظواهر لبسلوك عرضى •

ولكن كانت نتيجة حوادث هذا المساء أنى فكرت فى كل جملة ، وكل كلمة قبل النطق بها ؛ ولم أسمح لأفكارى المعارضة بالظهور على لسانى ؛ وأخفيت احساسى الحقيقى . وادراكى الداخلى فى فهم الأحداث .

كان موقفى من « الستالينية » آنذاك أشد خطورة مما انعقدت بسببه جلسة النقد والنقد الذاتى . ماذا كان يحدث لو صرحت بأفكارى التى لم أعلن عنها حتى الآن ؟ وأعتقد اليوم ؛ أنى بدأت آنذاك السير فى الطريق ، الذى قادنى بعد سبع سنوات الى الكفر « باستالينية » ، والهروب من المنطقة الألمانية ، الواقعة تحت الاحتلال الروسى .

هدأت هذه الأفكار التى استغرقت فيها قبل الظهر نفسيتى نوعا ما . وأدخلت الطمأنينة فى قلبى . ثم أخبرت بعد الظهر بأنه ستعقد فى المساء جلسة نقد ونقد ذاتى فى مجموعتنا الألمانية ، ولكنهم لم يقولوا ؛ حول ماذا ؟ ولا ضد من ؟

خيم على الحجرة جو رسمى مشابها لما كان فى حجرة المدير فى أليوم السابق ؛ واستولى القلق والتوتر على كل الحاضرين .

تكرر كل شىء : وصف الحالة على المركب البخارى ، القاء الذنب على وعلى « شتيفان » ثم انصب النقد كله على .

على الرغم من أنى أسمع ذلك للمرة الثانية ؛ فقد شعرت مرة أخرى كأن أغلالا تطبق على عنقى . وعادت الى ذهنى الأفكار المعارضة ، التى طافت بذاكرتى قبل الظهر ، واشتدت شيئا فشيئا ، وسرعان ما شعرت مرة أخرى بالحيرة ؛ فقد كانت هناك دقائق ، بعدت فيها عن متابعة ما يلقى ، لا لأنى فقدت القدرة على التركيز ، بل لأنى سرحت فى أفكار « الزندقة » مرة أخرى .

استغرقت كلمة « فانديل » ساعة ، ومما جاء فيها أن المسألة معقدة جدا ، ولذلك وجب بحثها بحثا جديا فى محيط المجموعة ، وتبع ذلك اعادة سرد الأشياء ، التى لا أهمية لها ، وتفسيرها تفسيرا سياسيا .

ثم ذكر فى آخر الكلمة أن « ليندين » ألقى أمس بيانا غير كاف على الاطلاق ، ومن واجب كل منا الآن أن يبدى برأيه فى هذا الموضوع .

تحدث كل أعضاء مجموعتنا واحدا بعد الآخر ، وسار كل شىء حسب الخطة الموضوعة ، حتى أعز أصدقائى ، تحتم عليهم الآن أن يطعنونى ، ونفذوا ما رسم لهم ، فقد رسمت خطبة « فانديل » ما يجب

أن تتضمنه كلماتهم فالتزم بذلك كل أعضاء المجموعة غير أن النغمة كانت تختلف من واحد لآخر ، فبعضهم أراد الظهور بمظهر المتحمس للالتزام بالاتجاه الرسمى فاشتد فى صب اللعنات على أكثر مما كان « فانديل » نفسه ، والتزم البعض الآخر جانب الوضع الرسمى لعملية النقد والنقد الذاتى ولكنهم لم يكونوا فى هجومهم مثل المجموعة الأولى .

لم يذكر أحد الطلبة — بدافع الصداقة التى كانت بيننا — اسمى ، وحاول معالجة المسألة « نظريا » ، فبدأ بشرح ملاحظات عامة عن خطورة الطباع السيئة ، ولكن لم ينفعه ذلك ، فقد قاطعه « فانديل » بحدة ، واتهمه بالخروج عن الموضوع الذى نناقشه فى هذه الجلسة . وهكذا قفل الباب فى وجه من يريد الخروج من هذا المأزق بهذه الطريقة .

ومضت ساعات ..

ثم وصلنا الى اللحظة التى وجب على فيها ابداء رأيى .

تحدثت فى هذه المرة وأنا أهدأ وأكثر واقعية من مساء أمس ، فاعترفت بذنبى مرة أخرى ، ولكنى بينت فى نفس الوقت أننى سوف أفكر فى هذا بدقة وحزم . كان الأول حقيقة ، أما الثانى فكان عملية « تكتيك » اضطررت اليها . وأخيرا تعلمت — مما حدث فى مساء أمس — أن الاعتراف السريع بالذنب لا يلقى قبولا . وانتهى المساء ببيان وكلمة أخيرة من « فانديل » .

لم يتخذ قرار فى هذه المرة أيضا ، فلم أعلم بعد ؛ عما اذا كانت المسألة قد انتهت بهذا ، أو أن هناك اجراءات أخرى ! ولكن ظهر فيما بعد أنها انتهت عند هذا الحد .

لقد كانت أول عملية للنقد والنقد الذاتى فى مجموعتنا ، ثم تكررت هذه التمثيلية فى الأسابيع والأشهر التالية ، حتى دخل كل الدارسين تقريبا طاحونة « النقد والنقد الذاتى » .

لم يغيرنى « النقد والنقد الذاتى الأول » فقط ، بل غير أيضا كل الدارسين فى مجموعتنا . نقد أصبحنا أكثر جدية ، وعلى الأخص أشد حذرا فى تعبيراتنا ، فاختفت الحرارة الزائدة فى السلامات والتحيات ، وتوارت حريـــة الحديث ، والنداءات العاليـــة المعبرة عن الاستحسان والفرح ، فتصرفنا نحن الشبان — الذين كانت أعمارهم تتراوح بين ١٩ و ٢٣ سنة — كأعضاء الحزب القياديين ، المتقدمين فى السن ، الذين ينقون كلماتهم بهدوء ، ويفكرون أكثر من مرة قبل أن يعبروا بها على

ألسنتهم ، ومن المحتمل أنى تصرفت آنذاك مثل أولئك القياديين ، الذين تعرفت عليهم فى « أوفـا » وكان تصرفهم معى غير واضح لى قبل بضعة أسابيع .

* * *

النضال ضد المذهبية

أعلن فى جميع المجموعات فى نهاية أكتوبر سنة ١٩٤٢ أن زائرا على مستوى عال سيحضر الى المدرسة فى غضون الأيام التالية — سيلقى عضو فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى محاضرة عن الوضع العالمى .

امتلأت قاعة المطالعة — التى تلقى فيها المحاضرات العامة — فلم يكن هناك كرسيا خاليا . وكما هى العادة المتبعة ، جلس على المناضد الخلفية المترجمون ، مع من يترجمون لهم ، وفى الصفوف الأمامية ، أولئك الذين يتقنون الروسية ، ويتحدثون بها كلغتهم الأصلية ، كان الجو يوحى بأن فى الأفق أحداث هامة .

لاحظنا فى هذه المحاضرة — كما كان الحال دائما فى كل محاضرة — الاشادة بالتحالف القوى الذى لا تنفصم عراه بين انجلترا وأمريكا والاتحاد السوفييتى ، والهجوم على « المذهبية » لقد تثقفنا سياسيا بدرجة مكنتنا من ادراك أن هناك خطا سياسيا جديدا ، وأن المحاضرة اشارة للاتجاه الذى ينبغى أن ندرسه بعد الآن .

ولم يخب ظننا ، فابتداء من هذا اليوم ، ازدادت فى كل المحاضرات العـامة وجميع الحلقات الدراسية التلميحات الى الخطر الجسيم : « المذهبية » .

وأحب أن أنبه القـارىء الذى ليست له صـلة بالأيديولوجية « الستالينية » أن من المسلم به أن الأمر لم يكن يتعلق بالدين أو الطائفية الدينية اطلاقا . فقد شرح مفهوم المذهبية فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية على النحو التالى :

« المذهبية فهم سياسى « أيديولوجى » ضار فى الحركات العمالية التى تنكر سياسة تحالف الطبقة العمالية مع الطبقات الأخرى ، وتحاول عزل الحزب عن الجماهير » .

نجح الحلفاء فى أوائل نوفمبر سنة ١٩٤٢ فى انزال قواتهم فى

شمال أفريقيا ، وفى منتصف نوفمبر بدأ هجوم الجيش الأحمر المضاد عند « ستالينجراد » الذى كان بداية تحول الحرب • ومنذ وقوع هذه الأحداث — ولكن بنوع خاص منذ أوائل عام ١٩٤٣ م — لم يمر يوم فى المدرسة الا ونسمع فيه هدير ضد المذهبية •

لم يتكرر فقط فى كل يوم مدح التحالف بين الاتحاد السوفييتى والبلاد الغربية فى المدرسة ، ويتخذ كأساس للسياسة الصحيحة ، بل ناقشنا أيضا — باستمرار — ضرورة خلق تحالف بين كل القوى السياسية فى كل بلد ضد « هتلر » ولا ينبغى فى المرحلة الراهنة — هكذا علمونا — أن ننظر الى مصالح السياسية الذاتية ، بل يجب تكريس الجهود أولا لتجميع القوى السياسية والعسكرية ، للنضال ضد الفاشية الهتلرية • ألقى الحزب بأهدافه الخاصة جانبا ، وأصبح واضحا أنه يركز كل قواه ضد هتلر ، ولهذا فسوف يكسب فيما بعد نفوذا حاسما •

لا شىء — هكذا كان التلقين مرارا وتكرارا — أخطر من اتخاذ الاجراءات المرحلية كوضع دائم ، والتمسك بها ، كما لو كانت ضربة لازب •

حاولوا تعبئتنا للنضال ضد المذهبية بسرد أحوال الظروف الصعبة ، وما اقتضته من أحداث وقعت قبل زمن طويل •

ولم أنس مناقشتنا حول موضـــوع « تاريخ الثورة الصينية » ٢٥ — ١٩٢٧ م ، سمعنا محاضرة شيقة جدا عن هذا الموضوع ، ثم وجب علينا مناقشته فى حلقة دراسية ، نهالت الأسئلة عن « الكومينتانج »(١) وتكوينه ، وأهدافه السياسية ، وعن القوى الاشتراكية ، والعلاقة بين الحزب الشيوعى الصينى ، والحـــزب الوطنى الديمقراطى ، ودور « تشيانج كاى شيك » •

دخل « ميخايلوف » أثناء المناقشة ، فجلس بجانب « فانديل » ، لو سمع المناقشة أى انسان ، لاقتنع بأننا نلم بالموضوع ، ونعرف عنه كل كبيرة وصغيرة ، لأننا كنا نجيب على أسئلة « فانديل » الصعبة اجابة صحيحة ، وبالتفصيل • ولكن ظهر أن « ميخايلوف » لم يكن راضيا ، فقد التفت بعصبية الى « فانديل » وقال له :

— « لا تؤاخذنى ! هل يجوز لى أن أسأل سؤالا هنا » ؟

---

(١) الحزب الوطنى الديمقراطى الصينى ، الذى أسسه « صن يات صن » عام ١٩١٢ (م • شامة) •

فقال « فانديل » : « طبعا ! طبعا ! » •

••قال « ميخايلوف » :

« أيها الرفقاء ! المسألة لا تتعلق بأنكم تعلمون كل هذه الأشياء ، طبعا هذا مهم أيضا ، ولكن هناك شيء آخر أهم منه ، اذ تعطينا الأحداث فى الصين من ١٩٢٥ الى ١٩٢٧ نظريات كثيرة جدا ، ويستطيع المرء أن يفهم هذه النظريات فهما صحيحا ، اذا وضع نفسه فى ظروف ذلك العصر • وبهذا يستطيع فى ظروف مماثلة أن يصل الى القرار الصحيح •

« أنتم كلكم تعلمون الظروف العامة فى ذلك العصر ، فمن الناحية الرسمية لا زال الحزب الشيوعى الصينى حليف الحزب الديمقراطى الصينى ، ولكن يبدو أن أيام هذا التحالف معدودة ، ويمكن أن يحدث التصدع فى أى لحظة •

« أحب أن أصور لكم جانبا من الوضع فى ذلك الوقت ، فقد كان للحزب الشيوعى فى « شنغهاى » آنذاك تأثير كبير على العمال ، وزيادة على ذلك فقد كان عند العمال أسلحة ، فقام الحزب فى حالات معينة بدور السلطة المسلحة ، وفى نفس الوقت كانت جيوش « تشيانج كاى شيك » تقترب من المدينة ، ويمكن أن تصلها فى أى يوم من الأيام التالية •

« ماذا كان ينبغى أن يفعله رئيس الحزب الشيوعى فى شنغهاى ؟ هل ينبغى أن يستقبل جيوش « تشيانج كاى شيك » بالترحاب كحليف ؟ هل يلقى كلمات الترحيب ، ويوزع منشورات التحيات ؟ أو ينبغى عليه أن يستدعى عمال المدينة ، لمقاومة جيوش « تشيانج كاى شيك » ويخرج بذلك من التحالف الذى كان على وشك الانهيار ، حتى ولو لم يحدث ذلك ؟ ••

« ليس ما أقوله خيالا ، بل وقع فعلا ، لقد استمر الرفقاء آنذاك يناقشون الوضع طول الليل » •

وقف « ميخايلوف » عند ذلك ، وسكت لحظة ليفاجئنا بهذا السؤال :

« وأنتم ! ماذا كنتم فاعلون » ؟

خيم السكون التام دقيقة •

لقد شرح الوضع بطريقة مدهشة ، لدرجة أن المرء يمكنه أن يجزم بأنه كان هناك فى تلك الأيام (وهذا ممكن جدا) •

استغرق كل واحد منا فى التفكير ، حقا لقد كانت المسألة معقدة ، وأخيرا طلب أحدنا السماح له بالكلام :

« أعتقد أنه كان من الأصح أن يحافظ المرء على عقد التحالف ، ما دام متأكدا أن المحالفة قائمة على أساس صحيح ، ولكن فى تلك الأيام ، عندما تبين أن « تشيانج كاى شيك » سيخون التحالف فى أى لحظة ، ويستخدمه للضربة القاضية ، كان لزاما على المرء أن يؤيد الحزب ، والعمال الموالين له • ولا يجوز بأى حال من الأحوال ترك عمال « شنغهاى » والحزب الشيوعى فريسة لـ« تشيانج كاى شيك » وخاصة اذا كان سلاحهم أقل ، وهم فى حالة الدفاع عن النفس •

نظر الدارسون الى « ميخايلوف » نظرة تساؤل ، ولكنه لم يقل كلمة واحدة ، حتى لم يظهر أى اشارة على وجهه • ثم سأل :

« هل توافقون كلكم على هذ الرأى » ؟

فطلب آخر الكلمة :

« لست متأكدا كل التأكيد ، ولكنى أعتقد أنه على الرغم من كل شىء ، فقد كان ينبغى على زعيم الحزب الشيوعى فى « شنغهاى » أن يستقبل قوات « تشيانج كاى شيك » بمظاهر الترحاب والاخوة — حتى ولو كان هناك خطر فى أن « تشيانج كاى شيك » سيدمر التحالف ، ويستفيد من هذه المساعدة ، فى الاستيلاء على مدينة ضخمة • كان الالتزام بالتحالف واجبا ، كى يصبح واضحا لدى كل انسان فى الصين أن « كاى شيك » هو الذى نقض العهد ، وخان الثورة ، وليس الشيوعيون ، وسوف يترتب على اتخاذ مثل هذا الموقف صعوبات وقتية للحزب ، ومن الممكن أن تقع ضحايا ، ولكن ربما كنت هذه السياسة أحسن ، رغم كل ما يعترضها من عقبات » •

مال معظمنا الى تأييد هـذا الرأى ، نظرنا الى « ميخايلوف » لنستشف اتجاهه ، ولكنه لم يقل شيئا فى هذه المرة أيضا ، بل انتظر ، وأخيرا طلبت الكلمة الفتاة « ايمى » التى برعت فى تكوين اللجـان الشعبية •

ابتسمت ابتسامة غير واضحة ، ثم قالت :

« أعتقد أن المرء لا يحتاج الى تقرير هذا أو ذاك • كان يجب اتباع ما يلى :

فمن الناحية الأولى : اصدار بيـان رسمى واستقبال فرقة الحزب الوطنى الزاحفة ، استقبال ترحيب ، ومن ناحية أخرى طبع منشورات

وتوزيعها على العمال تحذرهم من الخيانة المتوقعة من « تشيانج كاى شيك » وينصحهم بالحذر من القاء السلاح من أيديهم ، لأنهم ربما يحتاجون اليه عند حدوث الغدر المتوقع » •

نظر « ميخايلوف » نظرة جادة ، ثم قال بصوت بطىء جدا ، ولكن بالنسبة لطريقته المألوفة حاد نسبيا :

« الاقتراح الأخير مرفوض ، فلا يتعلق تصوير هذه الواقعة بمسألة « التكتيك » بل بالاستكشاف « الاستراتيجى » ، ويجب على الرفيقة « شتيرن » ادراك الفرق •

يكمن الفرق باختصار فيما يلى :

تتكفل « الاستراتيجية » بالقوى الرئيسية للثورة ، وتتغير بتحول الثورة من مرحلة الى أخرى ، ولكن جوهرها يظل باقيا لا يتغير مدة دوام المرحلة الواحدة • ولكن « التكتيك » على العكس من ذلك ، فهو يتكفل بأسلوب التنظيم والنضال الضرورى • وتدور المسألة هنا حول وضع خطوط سياسية لمرحلة قصيرة جدا ، يمكن أن تتغير داخل حدود المرحلة الواحدة ، أو فى اطار الثورة عدة مرات •

لم تنته المناقشة عند هذا الحد ، اذ وقف كل أعضاء المجموعة — واحد بعد الآخر — يبدى برأيه فى هذا الموضوع ، ولكنهم لم يأتوا بجديد ، وانما داروا حول الرأيين السابقين ، بطرق وأساليب مختلفة • وبعد وقت قصير ، وقف « ميخايلوف » :

« لم أعط لكم هذا المثال لذاته ، بل أردت أن أبين لكم به مدى صعوبة اتخاذ قرار سياسى فى بعض الأحايين • ربما يضطر أحد منكم فيما بعد الى اتخاذ قرار سياسى وحده • فالتاريخ ليس تاريخا فقط ، اذا درستم التاريخ ، فحاولوا الانغماس بأفكاركم فى أحداثه ، فذلك يطور قدرتكم على اتخاذ القرارات » •

ثم تطرق الى ما كنا ننتظره منه بفارغ الصبر ! أى الرأيين أصح ؟ وكان مباغتا لنا جميعا ، عندما قال :

« كان الرفيق الثانى على صواب ، فالتحالف السياسى المشترك ، يعلو فوق مصير القرارات الفردية ، حتى ولو كان التحالف فى خطر ، فلا يجوز اطلاقا — وتحت كل الظروف — البدء بنسف التحالف • حتى ولو كان هناك خطر الهزيمة ، فى بعض النواحى والتضحية ، فلا يجوز أبدا اهمال الهدف الاستراتيجى للتحالف ، لأنه سيؤثر بمرور الزمن على

الحزب سياسيا • لسنا نحن ، بل الآخرون هم الذين يتركون جبهة التحالف القائمة » •

كان هذا هو جواب « ميخايلوف » فى نهاية عام ١٩٤٢ م مطابقا للخط « الاستراتيجى » الذى أعلن آنذاك ؛ غير أنى لست متأكدا ، عما اذا كان قد ألقى به جانبا بعد سنوات قليلة •

لم يتناول الهجوم على « المذهبية » فى الحلقات الدراسية ، حوادث النصين البعيدة ، وحوادث عام ١٩٣٧ م فقط ، بل ظهر أيضا بعد بضعة أسابيع فى مسائل معاصرة •

أعلن فجأة عن محاضرة خاصة لكل الدارسين فى المدرسة ، يرتبط موضوعها بالأحداث الهامة أيضا •

تكلم « ميخايلوف » فى هذه المحاضرة ضد « المذهبية » وعلى الرغم من أن هذا الموضوع لم يكن جديدا بالنسبة لنـــا ، فقد شعرنا بأن هناك شيئا جديدا •

لم يطل انتظارنا ، اذ رفع « ميخايلوف » صوته فجأة قائلا :

« •• أشدد على هذا ، لأننا رأينا فى مدرستنا قبل بضعة أسابيع ، حالة تشير الى أننا لم نتغلب بعد على « المذهبية » : حالة وصلت الى الخطر جدا ، تحتم علينا ازاءه ، معالجتها فى محاضرة عامة » •

أعصاب الجميع مشدودة : فكلنا نعلم أن القول الفاصل يتلو هذا التصريح ، انتظر « ميخايلوف » حتى انتهى المترجمون من الترجمة ، ثم واصل كلامه :

« لقد وصلت « المذهبية » فى المجموعة الايطالية بعيدا ، لدرجة أنها تسببت فى أخطاء سياسية خطيرة • ففى احدى الحلقات الدراسية قال أحد أعضاء المجموعة الايطالية : لقد حان الوقت لاعطاء رجال حرب العصابات الايطاليين اشارة الى البحث عن مكان أمين لاخفاء الأسلحة ، حتى لا تقع — فى حالة تحرير ايطاليا على يد قوات الانجلوأمريكان — فى يد الانجليز والأمريكان » •

اندهش معظمنا ، لأن مثل هذه المناقشة ، كانت آنذاك ، لا تزال موسيقى المستقبل ، اذ لا تزال القوات السوفييتية عند « ستالينجراد » ، ولم يمض وقت طويل على نزول قوات الحلفاء فى جزء من شمالى أفريقيا ، ولم تبدأ بعد حرب العصابات الايطالية ، اللهم الا عمليات بسيطة جدا •

اعتبر « ميخايلوف » ما حدث فى المجموعة الايطالية أمرا خطيرا جدا :

« فالخطر الكبير الذى نواجهه الآن هو « المذهبية » ، هو التقوقع داخل القوى الوطنية ، وهو خطر عزل الحزب .

« وعلى هذا الأساس ، يجب ادانة هذا الاتجاه بأقسى ما تكون الادانة ، لأنه يضع اسفينا فى جبهة الكفاح المتحالفة ضد الفاشية ، ويضعف النضال ضد الفاشية ، ولا يساعد الا الفاشية . من يرى أنه ينبغى على قوات حرب العصابات الايطالية ، اخفاء أسلحتها من حلفاء الاتحاد السوفييتى ، فلا يخدم سوى « هتلر » .

فجرت الواقعة التى حدثت فى المجموعة الايطالية حملة شاملة فى كل المجموعات ضد « المذهبية » .

اعترفت جهات عليا بعد خمس سنوات بصحة رأى هذا الرفيق ، الذى اعتبر آنذاك أنه لا يخدم سوى الفاشية ، ففى سبتمبر سنة ١٩٤٧ وجه نقد فى مؤتمر مكتب الاستعلامات الشيوعى ، الى رجال حرب العصابات الايطاليين ، لأنهم — تنفيذا لأوامر موسكو — لم يخفوا أسلحتهم .

* * *

احتفال رأس السنة الجديدة السياسى

انتهى عام ١٩٤٢ م بما حدث فيه من حل وتركيب الأسلحة ، وتنظيم وحفظ الأغانى الشعبية الألمانية ، و « النقد والنقد الذاتى » ، ومكافحة « المذهبية » .

لم يبق على اليوم الأخير من العام سوى بضعة أيام ، وأعلن أن الاحتفال بليلة رأس السنة سيكون فى كل مجموعة على حدة . عندما سمعت — بطريق الصدفة — « باول فانديل » يتحدث مع أحد الرفقاء كبار السن ، عن « تنظيم الاحتفال بليلة رأس السنة الجديدة » لم يكن من الصعب على تخيل طابع الاحتفال فى مجموعتنا .

اجتمعنا فى مساء رأس السنة فى الميعاد المحدد فى حجرة الحلقات الدراسية الباردة ، غير المريحة نفسيا ، وسارت الأمور على نحو ما تسير عليه فى الحلقات الدراسية ، غير أن المناضد وضعت فى يوم الاحتفال بطريقة أخرى ، وغطيت بالمفارش ، وبالاضافة الى ذلك ، فقد حصلنا

على قرع عسلى ، قسم على أفراد المجموعة ، وقامت الفتيات بعمل الشاى ، ولم يكن عندنا مشروبات كحولية ، لأنها كانت ممنوعة منعا باتا .

وعلى الرغم من جو الحجرة القاتم . وطريقة الاحتفال « الغريبة » بالقرع العسلى والشاى ، فقد تحول الجو العام الى نغمة مفرحة ، لم تكن ضمن البرنامج المنظم المرسوم ، ولذا لم يسمح لها بالاستمرار طويلا .

« أعتقد أننا يمكننا أن نبدأ الآن أمسيتنا اللطيفة ؛ فعلى الرفقاء أن يتفضلوا بالجلوس » .

جلسنا طائعين ، فشعرنا بأننا فى درس من دروس الحلقات الدراسية ، وسار الاحتفال بليلة رأس السنة الجديدة طبقا للبرنامج المرسوم .

أعطى « فنديل » اشارة الى أحد الرفقاء كبار السن ، فنهض واقفا ، وألقى قصيدة شعرية ثورية ، كانت ركيكة ، ثم جلس .

ثم أعطى اشارة أخرى ، فقام الرفيق الثانى وقرأ علينا نبذة من كتاب .

والآن ! لم يعد جو حلقة دراسية ، بل انقلب الى سكون تام من المشتركين فى الاحتفال ، وكأنهم فى محاضرة عامة . فانتابنا شعور بمحاولة الكتابة وراء من يلقون كلماتهم ، وندمنا على أننا لم نحضر معنا أقلاما وأوراقا .

وبعد أن انتهى الثانى ، قام الثالث ، وألقى شعرا أيضا كالأول ، وفجأة حدث ما لم نكن نتوقعه : انفتح الباب فتوقف الرفيق عن القاء الشعر .

لم نصدق أعيننا ، دخل مدير المدرسة « ميخايلوف » وهو يغنى . نظر الينا متعجبا ، ونحن جالسون كالأصنام حول المنضدة ، فنظرنا الى مدير المدرسة غير مصدقين فهو يغنى ، والكل فى دهشة ، ولكن كان « ميخايلوف » أول من أفاق منها ، فعندما رأى المنظر وتحقق منه ، عادت الجدية الى وجهه (كما لو كان ضروريا ذلك عند المجموعة الألمانية فى حفلة ليلة رأس السنة) وجلس على المنضدة ، وارتقب صامتا ، ما يقدم لنا .

وفى غضون ذلك ، عاد الهدوء الى الرفيق ، الذى تسمر من هول المفاجأة ، فواصل القاءه ، وعلى الرغم من أننا كنا جميعـــا منظمين وصامتين ، فلم نستطع الاستمرار فى تتبع ما يلقى ، ولحسن الحظ انتهت بسرعة .

والآن ! لم يعلم أحد منا بالضبط ، ماذا ينبغى أن يسير عليه البرنامج بعد ذلك . من المحتمل أن « فانديل » أعد بعض الأشخاص الذين يقفون تبعا لاشارته ، فكل شىء أعد ورسمت خطته ، ماعدا دخول المـــدير .

تبودلت نظرات التساؤل بين « فانديل » و « ميخايلوف » ، يبدو أن الالتزام بخط « فانديل » المرسوم كان مملا « ميخايلوف » .

عندما رأى أنه لا توجد نغمة مفرحة فى المجموعة الألمـــانية فى ليلة رأس السنة الجديدة ، كيف نفسه مع الوضع ، وتحدث الينا ، ولكن كان حديثه حرا ، بطريقة أخرى انسانية ، لم أسمعها فى الاتحاد السوفييتى — ولا عند من فى فلكه — قبل هذا اليوم ولا بعده .

تحدث عن أخطار ومحاسن الحياة الثورية ، وفى نهاية حديثه القصير أخرج عود ثقاب من علبة الكبريت ، ثم قال : « ربما أستطيع شرح الأفكار والمشاعر التى أحس بها الآن بطريقة أوضح من ذلك بالمثال » .

وفى غضون ذلك كان قد أخرج عود الثقاب وأشعله ، وفى لحظات قليلة احترق العود ، ولم يبق الا رماد قليل .

نظر الينا « ميخايلوف » نظرة عطف ، ولكنها تنبىء عن استغراق فى التفكير :

« أليس هذا مثل حياة انسان عادى ؟ يشتعل أولا ببطء ، ثم يشتد الاشتعال ، وأخيرا يحترق . ولم يبق منه سوى رماد قليل لا قيمة له . الانسان يعيش ، ويعمل ، ويكون أسرة ، ويصبح له أولاد ، ثم يموت ، وتقام عليه الأحزان ، وفى أحسن الأحوال يشيعه أفراد أسرته ، وبعض معارفه — حياة لا فائدة فيها ، ولا ضرورة لها .

فاذا نظرنا الى حياتنا ، فهى على الضد من ذلك ، حياة مليئة بالأحداث والأخطار ، والرحلات ، والسجون ، وتولى المسئوليات داخل الأسرة الكبيرة ، التى نسميها الحزب ، لها هدف ثابت واضح ، هو الحجر الأساسى لعالم جديد ، وبعد الموت تشيعه أعداد كبيرة من الرفقاء . أليس هذا وضعا آخر ، وضعا آخر غير عود الثقاب ، الذى لا قيمة له » ؟

كنا جميعا فى حالة ذهول ، فلم يحدثنا أحد قط بهذه الطريقة فى هذه المدرسة .

نظر « ميخايلوف » الى كل واحد منا نظرة فحص وتدقيق ثم قال :

« ربما تتذكرون كلمتى فيما بعد ، وخاصة عندما تواجهكم صعوبات ، سوف تساعدكم ، ولكن الآن ، فى ليلة رأس السنة ، ينبغى عليكم أن تتمتعوا بالاحتفال بها احتفالا حقيقيا ، ومن المؤكد أنكم ستسمحون لى بأن أقوم الآن بزيارة المجموعات الأخرى أيضا » .

لم يعد بعد مكان للتسلية والفرح فى هذه الليلة ، اذ كلف بعضنا بالذهاب الى المجموعات الأخرى لتبليغهم تحيات المجموعة ، وكان على أن أزور المجموعة البلغارية ، وتبين لى أنهم التزموا الجدية أيضا فى احتفالهم كما التزمناها نحن فى المجموعة الألمانية .

عندما عدت الى مجموعتنا لم تكن الساعة قد جاوزت الحادية عشرة ، ولكن احتفالنا بليلة رأس السنة كان قد انتهى .

لم أكن حزينا على أنه انفض ، وذهبت لأتجول قليلا ، وحاولت أثناء تجولى البحث عن جواب لهذا السؤال :

لماذا كان الاحتفال « بليلة رأس السنة الجديدة » جافا وغير طبيعى ؟

اعتقدت آنذاك أنها ظاهرة فردية فى مدرسة الجبهة حيث لا تسمح الأنظمة المفروضة على الدارسين باظهار النغمة المرحة .

ثم تأكدت فيما بعد أنها لم تكن طابع الحياة فى مدرستنا فقط ، بل لم تكن « أمسيات التسلية » التى يقيمها قياديون من الطبقة العليا فى الحزب — وخاصة اذا عاشوا فى الاتحاد السوفييتى فترة طويلة — تختلف عن احتفالنا بليلة رأس السنة الجديدة .

وعندما كفرت « بالستالينية » تأكدت أن ذلك كان ظاهرة حتمية للنظام نفسه ، ظاهرة تتصل بعملية النقد والنقد الذاتى ، الذى يجبر القياديين :

— على وزن كل كلمة ، والتفكير فيها .

— وعلى الخضوع المطلق للزعامة .

— ويحرم عليهم المناقشة الحرة .

— ويعزلهم عزلا تاما عن أن يكونوا أناسا عاديين .

— ويدفعهم الى « التطهير » الذى يقتل كل معانى الانسانية فى الانسان .

خلف الاحتفال « بليلة رأس السنة » ذيولا ، فبعد بضعة أيام ، دعيت المدرسة كلها الى الاجتماع .

وظهر أن أربعة من المجموعة الأسبانية تناولوا قليلا من الكحول فى ليلة رأس السنة ، اذ قسموا زجاجة خمر صغيرة بينهم . فوجئوا — الأربعة — باعلان هذا الخبر فى بدء الاجتماع ، فقد شرب اثنان منهم كأسين ، كل واحد كأسا ، والثالث نصف كأس ، أما الرابع فلم يشرب اطلاقا .

نوقشت المسألة فى المجموعة الأسبانية فى جلستين للنقد والنقد الذاتى ، حيث اتخذ قرار بطرد الشبان الأربعة من منظمة الشباب ، فقد كانوا كلهم أعضاء فى المنظمة .

والآن ! طرح الموضوع فى اجتماع عام ، ليكون عبرة وعظة للآخرين . ومرة أخرى كانت هناك بنود اتهام ، وضرب أمثلة ، على منوال تلك الطريقة التى أعرفها الآن جيدا .

وفى نفس الوقت سلطت الأضواء على « النموذج البراق » للشباب السوفييتى فى المنظمة ، على الرغم من أن كل الحاضرين يعرفون تمام المعرفة أن آلافا من شباب المنظمة السوفييتى ، كان يشرب الواحد منهم كل يوم مقدارا من المواد الكحولية أكثر مما أراد أن يشربه الأسبانيون الأربعة فى ليلة رأس السنة .

صودق على قرار طرد الأسبانيين الأربعة من منظمة الشباب ، ولكنهم عادوا اليها بعد ثلاثة أشهر ونصف ، لأنهم أثبتوا أنهم مثاليون فى تصرفاتهم .

ولكن لم ينته تطبيق اجراءات النظام دائما بهذه النهاية السعيدة ، فقد شاهدت حالة بعد ذلك بوقت قصير ، حفرت لها قنوات فى ذاكرتى فلن تنسى مدة حياتى .

* * *

طرد الرفيق « فيلى »

كان معنا شاب فى مجموعتنا ، يبلغ من العمر ٣٥ عاما تقريبا ، واسمه الحركى « فيلى » ينحدر من أسرة عاملة ، كانت تقيم فى برلين — أعتقد أنها كانت تقيم فى حى « فيدينج » — ، التحق بتنظيم الشباب الشيوعى وهو حدث وتولى سلسلة من المناصب المتوسطة ، وكان فى اتحاد نضال الجبهة الأحمر . ثم التجأ الى الاتحاد السوفييتى بعد عام ١٩٣٣ م .

وبعد اندلاع الحرب الأهلية فى أسبانيا ، التحق بمدرسة عسكرية بالقرب من « ريازا » ؛ وكانت هذه المدرسة — حسبما علمت — أكبر مدرسة عسكرية لتأهيل الأجانب المناهضين للفاشية الذين يعيشون فى الاتحاد السوفييتى ، للقتال فى أسبانيا • ثم قاتل مع العرقة العالمية فى أسبانيا •

احتل « فيلى » مركزا مرموقا فى مجموعتنا ، اذ كانت له خبرة الرفقاء كبار السن ، وفى نفس الوقت كانت لديه القدرة على الاستيعاب السريع مثل الشبان • كان متيقظا جدا ، ومهتما بالدراسة ؛ وأحب شخصية فى مجموعتنا ؛ فقد تمتع بالاحترام بين الشباب ، وكبار السن •

وذات يوم ، بعد الظهر ، كان عندنا مناقشة حول بعض المسائل المعاصرة • ولم تكن فى هذه المرة تكوين « لجان شعبية » سرية فى الخيال ، بل كان موضوعا حساسا : العمل السرى ضد الفاشية فى الجيش الألمانى •

تصببنا — نحن الشباب — عرقا ودما ، فلم نعمل فى جيش قط ؛ وتركنا ألمانيا ونحن أطفال ، اذن ، لم نعرف ألمانيا ؛ ولا العمل فى جيش ، فضلا عن التحدث عن لجيش الهتلرى الألمانى • ولكن لم يفدنا هذا ؛ اذ تقاطرت علينا الأسئلة ، وكان علينا أن نكون تنظيمات سرية فى جيش « هتلر » ، بالضبط كما فعلنا فى تكوين اللجان الشعبية فى المدن والقرى •

لم تكن المسألة صعبة علينا ، لأننا لا نعرف شيئا عن الوضع فى الجيش الألمانى — بصرف النظر عن لمعلومات التى وصلت الينا عن طريق النشرات وخطابات الجنود — بل لأننا نقع عند معالجة هذا الموضوع فى صراع ميئوس منه ؛ فقد شدد علينا بأنه لابد أن تكون السرية محكمة ؛ فلا يجوز لأعضاء المجموعة السرية ، أن يتركوا أثرا للتعرف عليهم ، ولكن فى نفس الوقت ، يجب أن تقوم مجموعتنا السرية المخطوطة على الورق ؛ بمعجزات فى نشاطها بين صفوف الجيش •

ضربت الأمثلة فى هذه الحلقة ، حيث كنا نمثل فيها دائما دور زعيم هذه المجموعة السرية ، الذى يفاجأ بسؤال من « فانديل » : « ماذا تفعل لو •••• ؟ » •

وظهر فى هذه المرة أن سلسلة سؤال « ماذا نفعل لو ••• ؟ » لا نهاية لها مطلقا •

لقد كان من المسائل التى عرضت علينا هذا المثال :

كانت هناك مجموعة سرية تعمل فى احدى وحدات الجيش ، التى تعسكر فى احدى المناطق المحتلة فى الاتحاد السوفييتى ، تلقت احدى السرايا الصغيرة فى هذه الوحدة — حيث توجد المجموعة السرية — أمرا باحراق المنازل ، وقتل النساء والأطفال الروسيين .

اضطربت عندما سمعت « فانديل » يسأل :

« ماذا تفعل فى هذه الحالة ، كزعيم للمجموعة السرية » ؟

تلفت « فانديل » ثم طلب الاجابة من « فيلى » ، فقال :

« لا يمكن أن أدع شيئا ينبىء عن عملى السرى بأى حال ، وتحت أى ظرف من الظروف ، فقد تعلمنا بأن الجيش هو أهم شىء فى نشاط التنظيمات السرية ، وأننا لا يجوز لنا كمجموعة خاصة ، كشف شخصيتنا لنعدو أبدا » .

قال « فانديل » :

« حتى ولو ارتكبت جنود من نفس السرية أعمالا مخزية ضد الشعب السوفييتى » ؟

اضطرب « فيلى » :

« نعم ! لا أعرف ، ولكن أعتقد ... ان المرء حتى فى هذا الموقف الصعب ... من المحتمل .... بلى ، ربما لا يجوز للمرء حتى فى هذا الموقف الصعب أن يتسبب فى القضاء على المجموعة السرية » .

صمت كثير منا ، وأنا أيضا ، فنحن لا نعلم — ونحن جالسون هنا فى « بشكيرين » — ماذا ينبغى أن يفعل المرء فى مثل هذا الموقف ! وعلى أى حال فقد شعرنا بأننا سوف نعلم ذلك عندما نوضع ذات يوم فى مثل هذه الظروف ، ولكن الأمر هنا لا يخرج عن كونه افتراضا نظريا ، ولذا قرر كثير منا التزام الصمت .

حتى « فانديل » نفسه ، لم يقل شيئا ، واستمرت المناقشة فى طريقها ، فتحدث ثلاثة أو أربعة فى موضوع آخر ، وفجأة وقف « فانديل » ، فساد الصمت الحجرة كلها ، نظر الينا مندهشا ثائرا :

« أحس أن لا أحد فى المجموعة ، لاحظ حتى الآن ، أنه قد حدث هنا شىء فظيع ، غير معقول » .

ملاحظة ذات مغزى ! لم ينبس أحد منا بكلمة . كنت معتقدا حتى الآن أن لى حاسة خاصة لاكتشاف المسائل السياسية ، ولكنى لاحظت

أنى لا زلت بعيدا عن امتلاك هذه الخاصية • لم أعرف ، ماذا يقصد ؟ ثم تذكرت ما قاله « فيلى » • هل كان هذا هو ما قصده « فانديل » ؟ طرحت هذا التفكير بعيدا بسرعة ••• وأخيرا قال « فيلى » انه لا يعلم الحل بالضبط ، وعلاوة على هذا ، فالمسألة معقدة جدا •

وفى غضون ذلك ، استمر « فانديل » فى القاء خطبته • لم تزل حتى الآن كلاما عاما ، اذ تحدث عن النضال البطولى للشعب السوفييتى ، وعن وحشية الجيش النازى ، وفجأة ــ كالبرق الخاطف ــ وصل الى توجيه الاتهام المباشر : « ••• وفى مثل هذا الموقف ، حيث يكون من واجب معارضى الفاشية المقدس ، شن النضال ضد الفاشية ، يبين « فيلى » دون استحياء ، أنه يقف مكتوف الأيدى أمام الوحشية ، التى يرتكبها النازيون ضد الشعب السوفييتى • ليس هذا خطأ سياسيا ، بل هو أكثر من هذا ، هو خيانة الكفاح المقدس ضد الفاشية ، خيانة حركة العمال الألمـانيين ، خيانة أول بـد يرفع لواء الاشتركية ، ألا وهو الاتحاد السوفييتى » •

انشغلنا بمناقشة هذا الموضوع بجدية وحزم فى الأيام التالية ، وانتظرت حتى أسمع رأى كل واحد فيما قاله « فيلى » •

ساد صمت قاتل عدة لحظات ، فقد تعودنا على الكثير ، ومارسنا مرات عديدة عملية « النقد والنقد الذاتى » ، ولكن لم نسمع فى مرة من جلسات النقد السابقة هجوما قاسيا وعنيفا ، مثل ما يتدفق اليوم من أفواه المتكلمين •

لاحظت أن « فانديل » لم يعد يخاطب « فيلى » بلفظ « أيها الرفيق » • هل كانت مصادفة دون قصد ؟ هل سيتخذ اجراء ضد « فيلى » ؟ ولكنى تخلصت من هذه الأفكار ، اذ لم تصل المسألة الى هذا الحد •

وفى غضون ذلك رفع كثير منا أيديهم ، ولكنى انتظرت ، تحدث واحد بعد الآخر ، فصبوا جام غضبهم على رأس « فيلى » لقد أمطرت السماء عليه وابلا من اللعنات •

كان صديقى « جان » يجلس فى آخر الصفوف ، وهو من المغرمين بالمارشال « شوكوف » ويمدح فيه كثيرا • وكان الوحيد من الشبان ، الذى يعرف شيئا عن الحياة فى الجيش ، فقد أقام عدة شهور فى الجيش

الأحمر • كان عنده نقطة ضعف ازاء المواقف الصعبة ، وفضلا عن ذلك فلا يزال أشجع الجميع •

طلب الكلمة :

« كنت فى الجيش ، وقمت بأعمال مع الأقسام ، التى تنظم مثل هذه الأشياء • يمكن أن يحدث هذا الموقف فى حالات خاصة نادرة جدا • فاذا كان الأمر — على سبيل المثال — يتعلق بـ••••• » •

قاطعه « فانديل » بحدة :

« لم نأت الى هنا لنحكى قصصا خيالية ، بل لنتخذ موقفا من أقوال « فيلى » التى تنبىء عن خيانة » •

ولكن الشاب « جان » الشجاع ، كان مقتنعا بفكرته الى حد الاعجاب بها فقال :

« أيها الرفيق « كلاسنير » أنا لا أريد سوى شرح حالة واحدة ، حالة شاهدتها بعينى فى الجيش ••• » •

ولكن لم يستطع « جان » أن يتم حديثه •

— « اسكت الآن ! أنا أسحب منك حق الكلام » •

سكت « جان » خجلا ، ولم يستطع أن يدافع عن « فيلى » بصراحة ، ولكنه حاول أن يضع له قاعدة ، لدفع التهمة عنه •

وشيئا فشيئا أبدى كل واحد فى مجموعتنا برأيه ، ثم رأيت « فانديل » ينظر الى مرتين ، ولكنى لا زلت صامتا ، وأخير عندما تحدث الجميع ولم يبق سوى واحد غيرى نادى « فانديل » اسمى •

فقلت : « أيها الرفقاء ! لا أحد منا يريد أن يستهين بمدى خطورة كلام « فيلى » كذلك فى المواقف الحازمة التى يجب أن يقاس فيها مثل هذه الانجازات ، لا ينبغى أيضا أن يستهان بالصعوبات التى تقابل من يبدى رأيه فى هذا الموضوع • كلنا يعرف الرفيق « فيلى » وكلنا يعلم أن « فيلى » كان دائما نموذجا ••••• » •

ولم أستطع الاستمرار فى الكلام ، فقد قاطعنى « فانديل » : « لا تحاول المراوغة هنا ، فالموضوع يدور مبدئيا حول مسألة سياسية ، فنحن لا نحتاج الى تصيد أساليب المدح » •

صمت • اذ لم أستطع الحكم عليه بصراحة ، على الرغم من أنى أعلم تماما أن هذا سيوقعنى مرة أخرى فى مأزق النقد والنقد الذاتى •

انتظر « فانديل » ، ولكنى استمررت فى صمتى ، فنظر الى كثير من مجموعتيا مندهشين ولائمين • ثم أخذ الكلمة « سيب » كآخر متحدث فى المجموعة ، ذلك الشاب الذى حارب مع « فيلى » فى أسبانيا ، وكان صديقا حميما له منذ سنوات عديدة • والآن ! يصب اللعنات على رأســـه •

وبعد كلمة ختام من « فانديل » انتهت مناقشتنا حول العمل السرى فى الجيش •

وفى مساء اليوم دعى جميع أعضاء المجموعة الى جلسة فى حجرة المدير وكنا نعلم أنها سوف تدور حول موضوع « فيلى » •

انتابنى الفزع عندما فكرت فى أننا سنضطر الى الكلام مرة أخرى ، ولكن لحسن الحظ لم يحدث هذا • حضر الاجتماع كثير من رؤساء المجموعات فى المدرسة ، ولم أشاهد هذه الظاهرة فى المدرسة من قبل ، وكان كثير من مدرسى مجموعات الدول الأخرى حاضرا أيضا •

تحدثوا كلهم تقريبا ، وكنا نحن تلاميذ المجموعة الألمـــانية مستمعين فقط فى هذه الجلسة •

ومرة أخرى شاهدت نفس المسرحية التى شاهدتها فى عملية النقد والنقد الذاتى الأولى ، ولكن كان الكلام هنا أكثر حدة ، والهجوم أشد فظاعة •

« فيلى » المسكين ! لقد خدم الحزب مدة حياته كلها ، وقاتل ثلاثة أعوام تقريبا فى أسبانيا تحت أصعب الظروف وأقساها • والآن ! يتهم بسبب جملة قصيرة قالها فى الحلقة الدراسية ، بجريمـــة « مساعدة الفاشية » و « الدعوة الى السلبية فى النضال ضد هتلر » •• الخ ، حتى شبهه أحد الخطباء بـ« فرانكو » •

ذكر اسمى واسم « جان » فى ثنايا هذه الخطب ، فقد اتهم « جان » بالاغراق فى الخيال، واتهمت أنا بالمراوغة ، ولكن كان واضحا أننا كنا فى هذه المرة ، صورا جانبية لا أهمية لها فى هذا الموضوع ، فقد كانت لعنات « النقد والنقد الذاتى » موجهة كلها ضد « فيلى » •

جلس « فيلى » فى أثناء ذلك على كرسى جانبى مبحلقا ، ولم ينبس بكلمة واحدة •

مضت ساعات ، وأفراد هيئة الادعاء يكررون ما يقولون ، ولكى

يهيأ الجو الفظيع — الذى يسيطر على جلسة « النقد والنقد الذاتى » ولا يمكن وصفه — عن طريق الاستمرار والتكرار •

وفجأة عندما اعتقدنا أن الجلسة قاربت النهاية — ازدادت حدة النغمة فقد تحدث أحد الخطباء عن النتائج الهامة ، التى يمكن أن تستخلص من موقف « فيلى » ؛ لأن هذه الحالة تفوق كل ما حدث فى المدرسة حتى الآن • ثم سأل بلهجة بالغة الحدة عما اذا كان سيسمح لـ« فيلى » بالبقاء فى مدرسة الجبهة بعد الذى حدث منه ، أو ينبغى أن يطرد منها • ولم يقتصر الخطيب على القاء السؤال فقط ، بل أجاب عليه بسرعة •

لا فائدة من هؤلاء الأشخاص — لم يعد يستعمل كلمة رفيق هنا أيضا — الذين يقفون مكتوفى الأيدى أمام اغتيال المواطنين السوفييت ، وينشرون مثل هذا التصرف بين صفوف الحزب الشيوعى • لا مكان فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية لأولئك الذين يساعدون الفاشية بمواقفهم التى يلتزمونها •

كرر « ميخايلوف » هذا القرار أيضا فى كلمته الختامية •

أصبت فى هذا المساء بضربة قاتلة ، كانت أشد مما أصبت به فى جلسة « النقد والنقد الذاتى » التى كانت موجهة ضدى •

لم أتأثر نفسيا من شدة القسوة ، وانعدام الاحساس القلبى فقط ، بل أيضا من مواقف أولئك الذين اتهموا « فيلى » وطالبوا بطرده من المدرسة ، فقد علم كل منهم تماما أن « فيلى » كان قياديا مخلصا وأمينا ، وكان يمكن أن يظل كذلك مستقبلا • وما أجاب به فى الحلقة الدراسية — ويعلم الجميع ذلك — لم يكن سوى تعبير عن الحيرة ، عند الاجابة على موقف مفترض وجوده افتراضا • وقد ظن « فيلى » أن من اللازم استخدام تلك الأسس التى شرحت لنا دائما فى كل الدروس عن العمل السرى ، على أنها الواجب الأعلى والأهم •

أعنى الحفاظ على السرية التامة ، وعدم التفريط فى أمر من شأنه أن يكشف أمر المجموعة السرية •

لم تتسبب الكلمات القليلة — التى قيلت فى الحلقة الدراسية — فى طرد « فيلى » من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فقط ، بل أصبح من المؤكد أنها ستطرده من الحزب أيضا ، وتعزله عن كل عمل سياسى فى المستقبل • وهذا يعنى أنه سيهوى الى أدنى طبقات

الشعب السوفييتى : الى حياة المحروم من الانضمام الى الحزب : الى حياة أجنبى مشكوك فى ولائه ؛ يعيش فى احدى المزارع الجماعية النائية ، أو حياة عامل صغير ، عتال فى أحد المصانع السوفييتية القاصية ؛ وفى معظم الأحوال كان هذا مرحلة انتقالية ، فقط للوصول لى السجن أو الى أحد معسكرات العمل • كان هذا واضحا لنا جميعا ، على الرغم من أنه لم يصرح به فى اجتماع المجموعة ، ولا فى جلسة « النقد والنقد الذاتى » فى حجرة المدير •

لم يتخذ قرار رسمى ، ولكن كان كل واحد منا يعلم بالطبع ، علام تدل أحداث هذا المساء •

لم يقل « فيلى » كلمة واحدة • ذهب الى حجرة النوم ، وحزم أمتعته ، ثم اختفى فى اليوم التالى • نجحت فى التحدث معه حديثا قصيرا ، عندما كنا وحدنا ، فواسيته ببضعة كلمات ، ولكنه لم يجبنى ، لم تخرج كلمة واحدة من بين شفتيه •

ولم نسمع منذ ذلك التاريخ شيئا من الجهات الرسمية عن « فيلى » ولكن فيما بعد جرى همس بين الزملاء بأنهم أرسلوه الى « كاراجندا » ، غير أنى لم أستطع التأكد من هذا الخبر •

لم يذكر « فانديل » ولا أحد من المدرسين الآخرين اسم « فيلى » بعد هذا اليوم ، وبدا وكأنه لم يوجد واحد اسمه « فيلى » على ظهر هذه الأرض ؛ ولكنى لم أستطع نسيانه ؛ فقد تكرر تفكيرى فى هذا العامل « البرلينى » الذى ضحى بالجزء الأكبر من حيته تحت أصعب الظروف فى خدمة الحزب ، ثم قذف به كما تقذف قطعة حديد قديمة ، بسبب كلمات قليلة ، تلفظ بها فى احدى الحلقات الدراسية •

* * *

حل مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية

مضى الآن تسعة أشهر ، منذ دخولى مدرسة الجبهة ، فقد بدأت دراستى فى منتصف أغسطس سنة ١٩٤٢ م ونحن الآن فى مايو سنة ١٩٤٣ م •ولا أحد منا يعلم ؛ متى تنتهى الدراسة ! فعندما ننتهى من دراسة موضوع . يعلن عن آخر ، ربما اتبعت هذه الطريقـــة لتهيئة

الفرصة — تحت الظروف الطارئة — لدارس أو لمجموعة فى الانقطاع عن الدراسة •

حدث هذا فى دورتنا الدراسية مرة واحدة فقط ، فقد تركت المجموعة « السلوفاكية » المدرسة فجأة فى فبراير سنة ١٩٤٣ م ، ولم يكن هذا نتيجة « النقد والنقد الذاتى » بل تعلقت المسألة باستدعائهم لعمل سياسى •

فقد فهمنا من التلميح فى محاضرتنا ، وسمعنا فى الأحاديث الخاصة أن من الدول المتحالفة مع المحور ، لا توجد دولة أنسب للعمل السرى نسبيا غير « سلوفاكيا » • ليس فقط فى امكانية الحصول على مساعدة الشعب ، بل قيل لنا ان رجال الشرطة يغمضون أعينهم عن بعض الحالات التى تتعلق بشخص يعمل ضد « هتلر » •

ولهذا لم نفاجأ ، عندما قابلنا رفقاءنا « السلوفاكيين » فى فبراير سنة ١٩٤٣ أمام مبنى المدرسة ، حيث كانت تنتظرهم العربات المتزحلقة على الجليد ، التى ستنقلهم الى « أوفا » • وطبعا لم يخبرونا بوجهتهم ، غير أنه كان واضحا للجميع أن المسألة تتعلق بتجنيدهم لنشاط فى « سلوفاكيا » •

وفيما بعد ، فى أوائل سنة ١٩٤٤ م عندما اندلعت اضطرابات ضد الفاشية فى شرق « سلوفاكيا » علمنا أن كل أفراد المجموعة التى كانت فى المدرسة ، اشتركوا بنصيب كبير فى هذه الاضطرابات •

وبعد عام ١٩٤٥ كرمت تشيكوسلوفاكيا الجديدة كل الذين أسهموا فى اضطرابات « سلوفاكيا » • ولكن لم يدم هذا طويلا ، فكلما ارتفع الدور القيادى للاتحاد السوفييتى — وخاصة بعد عام ١٩٤٨ م — كلما طمست فى « تشيكوسلوفاكيا » مظاهر تذكر الاضطرابات « السلوفاكية » والحركات التى كانت مناوئة للفاشية • وأخيرا — فى أوائل عام ١٩٥٠ م — أدين زعماء الاضطرابات السلوفاكية : « هوزاك » و « نوفومجسكى » ، ومئات من الذين اشتركوا معهم ، وألقى القبض عليهم •

وهكذا يوضح لنا مثال الاضطرابات « السلوفاكية » من جديد أن « الستالينية » لا تخاف من شىء ، أكثر من خوفها من حركاتها الثورية ، التى أنشأتها ، وكونتها من أتباعها ، فلم تتورع « الستالينية » من الاستفادة من بعض الانجازات الثورية هنا وهناك لخدمة أهدافها

الخاصة ، فاذا تمكنت سلطتها ، وثبت بالمشتركين فى الحركات الثورية ، ثم يلقى بهم فى غياهب السجون ، وقد ينفذ فيهم حكم الاعدام ، حتى نورتهم الخاصة ، لا يجوز للشعب أن يتذكرها ، بل يدخل عليها التحريف ، أو يلقى ستار من الصمت عليها ، كى يهيأ الجو فيما بعد « لدور الجيش السوفييتى فى معركة التحرير » و « لدور الزعامة السوفييتية » التى خططت ، ونظمت المعارك التى خاضها الجيش ، فحرر وطنه .

لم نكن نعرف شيئا من ذلك آنذاك فى فبراير سنة ١٩٤٣ . ودعنا أصدقائنا أعضاء المجموعة « السلوفاكية » ، وتمنينا لهم كل خير ، ونجاحا ساحقا ، ثم عدنا الى الاندماج فى دراستنا ، دون أن نعلم ، الى متى سنمكث فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .

كان عندنا فى هذا الخصوص نقطة جوهرية : سلسلة محاضرات تاريخ الشيوعية العالمية ، اذ لم نأخذ هذه المادة فى سلسلة واحدة ، بل كانت تسير فى خط موازٍ للمواد الأخرى ، وكان واضحا أن هذا الموضوع سينتهى فى نهاية الدورة الدراسية .

وصلنا فى منتصف مايو فى مادة تاريخ الشيوعية العالمية الى عام ١٩٣٤ م ، ولم يكن من الصعب التنبؤ بأننا سوف نمكث فى المدرسة — على أقل تقدير — ثلاثة أو أربعة شهور أخرى . وسمعنا من بعض الدارسين ، أن الدورة الدراسية فى مدرسة الجبهة قد خفضت أثناء الحرب الى سنة واحدة . وهكذا تهيأنا نفسيا للبقاء فى « كوشنارينكوفو » حتى أغسطس أو سبتمبر سنة ١٩٤٣ . وكان هذا بالتأكيد خطة قيادة المدرسة ، ولكنها قلبت رأسا على عقب بواسطة « سلطة عليا » .

كان تاريخ اليوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٣ . أردت الخروج الى الفناء بعد الانتهاء من حلقة دراسية ، فرأيت مجموعة من الدارسين واقفة فى صالة المدرسة . كنت أعلم أنه بين الحين والآخر تعلق بعض التعليمات على لوحة الاعلانات ، ولكن لم أر حتى الآن مثل هذا العدد الكبير من الطلبة واقفا أمام هذه اللوحة .

فاقتربت منهم لأستكشف الخبر :

لم تعلق هذه المرة تعليمات قصيرة على اللوحة ، بل أربع صفحات كبيرة ، مكتوبة على الآلة الكاتبة ، والطلبة منهمكون فى قراءتها باهتمام بالغ ، وصمت مطبق . ثم اكتشفت صديقى « بيتر تسال » بين الواقفين ، نظر الى مرتعبا فقلت له :

ـ « ما الخبر » ؟

ـ « لقد حلت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » .

وقفت كالأبله ، اذ لم أكن أتصور هذا اطلاقا .

ـ « هذا مستحيل » !

ـ « بلى .. اقرأ » !

وفى غضون ذلك كان البعض قد انتهى من قراءة النص ، وانصرفوا دون أن يقولوا كلمة واحدة .

ثم أفسح مكان لى وللذين وصلوا توا للوصول الى اللوحة . قرأت هنا ـ على لوحة الاعلانات ، وفى صالة مبنى مدرسة الجبهة ـ قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وتقول الفقرات المهمة فى القرار :

« دلت حوادث الخمس وعشرين سنة الماضية وكذلك خبرة الشيوعية العالمية ، دلالة قاطعة ، على أن صيغة تنظيم اتحاد العمال ـ كما تقررت فى المؤتمر الأول للشيوعية العالمية ، لضرورة اقتضتها الفترة الأولى لاحياء الطبقة العاملة ـ قد تخطت أخطار نمو هذه الحركات ، والمشاكل المعقدة فى تلك البلاد . هذه الصيغة أصبحت الآن عائقا فى طريق تقوية الأحزاب العمالية الوطنية . وزادت الحرب العالمية ـ التى شنها النازيون ـ تعميق التباين فى علاقات الدول المختلفة ، حيث أنشأت خطا فاصلا بين الدول التى تقع تحت جبروت النازية ، وبين الدول التى تقود الشعوب الحرة فى تحالف ضد هتلر ..

وانطلاقا مما سبق ذكره ، ومراعاة لنمو الأحزاب الشيوعية ، ونضج زعمائها فى كل دولة على حدة ، ومراعاة لحقيقة أن عددا من القطاعات ـ أثناء الحرب الدائرة الآن ـ اقترح حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، والغاء صفتها كمركز موجه للحركة العمالية العالمية ، فقد خولت اللجنة المركزية العليا للشيوعية العالمية لنفسها ـ حيث ان ظروف الحرب العالمية لا تسمح بعقد مؤتمر عام للشيوعية العالمية ـ الحق فى اتخاذ ما يلى :

* تحل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وتزال صفتها كمركز للحركة العمالية العالمية وتعفى قطاعات الجبهة من كل المسئوليات التى تولتها بمقتضى قرار مؤتمر الشيوعية العالمية .

* وتدعو رئاسة اللجنة العليا للشيوعية العالمية كل أفراد جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية بأن يركزوا كل قواهم فى جميع النواحى لمساندة

الحلفاء فى تحرير الشعوب والدول من طغيان « هتلر » وللقضاء السريع على أعداء الشعوب : الفاشية الألمانية وحلفائها •

وقع على هذا القرار من رئاسة اللجنة العليا للشيوعية العالمية :

« جوتفالد » و « ديمتروف » و « شدانوف » و « كولاروف » و « كوبلينيج » و « كوزينين » و « مانوئلسكى » و « مارتى » و « بيك » و « توريتس » و « فلورين » و « اركولى » •

لم أعرف — كما لم يعرف أحد من الدارسين أيضا — ماذا أقول تعليقا على هذا الخبر !

كانت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية حتى قبل بضعة دقائق أكبر تنظيم لنا •

لم ينشر قرار حل الجبهة فى الصحافة السوفييتية •

مثل الموقعون على قرار الحل ثمانى دول :

الاتحاد السوفييتى « شدانوف ، ومانوئلسكى » ، وألمانيا « بيك ، وفلورين » ، وفرنسا « توريتس ، ومارتى » ، وبلغاريا « ديمتروف ، وكولاروف » ، والنمسا « كوبلينيج » ، وتشيكوسلوفاكيا « جوتفالد » ، وفنلندا « كوزينين » ، وايطاليا « اركولى » — كان هذا اسمه الحركى المعروف به فى الاتحاد السوفييتى أما اسمه الحقيقى فكان « باليرو توجلياتى » •

لم يوقع على قرار الحل زعماء أحزاب شيوعية ، كانوا فى ذلك الوقت فى « أوفا » وفى « كويبيشيف » مثل زعيم الحزب الشيوعى الأسبانى « دولوريس اباروري » والرومانى « أنا باوكر » والمجرى « راكوزى » لأن الاثنى عشر لم يوقعوا على قرار الحل بصفتهم زعماء الأحزاب الشيوعية فى بلادهم ، بل كأعضاء اللجنة العليا ، انتخبوا لهذه المناصب فى آخر مؤتمر للشيوعية العالمية •

من الواضح أن القرار اتخذ بسرعة ، وكان فيه عنصر المفاجأة ، اذ لم تبلغ به قبل صدوره زعامة الأحزاب الشيوعية الأخرى ، ليؤخذ — على الأقل — رأيها فيه •

انتشر الخبر بسرعة فى أرجاء المدرسة ، فدار كثير من الدارسين هنا وهناك وأعصابهم متوترة •

أعلن ظهرا أن « ميخايلوف » — مدير المدرسة — سافر الى « أوفا » ، وسيعود فى غضون الأيام التالية • واستمرت الدروس

كالمعتاد فى أثناء غيبته ، ولكن لم يكن اهتمامنا كله موجها الى التحصيل ، بل جزء منه فقط •

عاد « ميخايلوف » بعد ثلاثة أيام من « أوفا » فدعى بسرعة الى اجتماع عام لكل من فى المدرسة ، وموضوع البحث « حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » •

سمعنا كثيرا محاضرات تعالج موضوعات خاصة وعامة ، وعلمنا أنها كانت تأتى دائما بمفتاح المشكلة التى من أجلها عقد الاجتماع لسماع المحاضرة ، ولكن لم تكن الأعصاب مشدودة فى يوم من الأيام ، كما كانت مشدودة قبل هذه المحاضرة •

بدأ « ميخايلوف » بملاحظة أن المرء يجب أن يكرس جهده ضد رأيين خاطئين فى مسألة حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • الأول : ضد الافتراض الذى يروجه النازيون ، بأن حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ليس الا حيلة ومناورة ، بل والواقع أن نشاطها سيستمر •

فحل الجبهة ليس حيلة ولا مناورة ، بل قرار حقيقى ، اتخذت الاجراءات لتنفيذه مباشرة ، وسوف يتمكن كل منكم من الاقتناع بهذا ، لأن من المسلم به أن مدرسة الجبهة قد حلت أيضا ، كذلك كل المؤسسات التى كانت تابعة حتى الآن لجهاز جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

الثانى : تروجه بعض الدوائر الغربية ، حيث يزعمون أن حل الجبهة هو اذعان الاتحاد السوفييتى لحلفائه الغربيين •

لا يتفق هذا الادعاء مع الحقيقة فى شىء ، اذ لا تتعلق مثل هذه المسائل — كمسألة حل الجبهة — بتقلبات السياسة الخارجية ، بل هى طبيعة بديهية •

وأخيرا تناول « ميخايلوف » شرح الأسباب الرسمية لحل الجبهة ، فالسبب الحقيقى — استمر « ميخايلوف » فى حديثه — يكمن فى أن تكوين الشيوعية العالمية قد جاوز وقته ، اذ هى الآن تعوق نضال الأحزاب الشيوعية فى كل جبهات القتال ضد الفاشية ، ولم تعد الواجبات المختلفة التى تقوم بها الشيوعية العالمية فى البلاد المختلفة صحيحة •

ثم شرح « ميخايلوف » :

« فقد كانت واجبات الجبهة فى الأعوام الأولى بعد تكوينها متشابهة عموما فى البلاد المختلفة ، باستثناء حالات وطنية خاصة ، فاذا قارنا هذا بالوضع الحالى وضح لنا التباين الأساسى ، فمن واجب الشيوعيين

فى انجلترا وأمريكا اليوم مساندة الجهود الحربية فى بلادهم ، ويجب على الشيوعيين فى ألمانيا وايطاليا عمل العكس تماما ، لكى ينزلوا الهزيمة بالفاشية • وعلى الشيوعيين فى البلاد المحتلة أن يقفوا فى مقدمة الوطنيين فى الجبهة ضد الفاشية ، لتحرير بلادهم من الاحتلال الفاشى • توضح لنا هذه النظرة القصيرة ، كيف أصبحت الالتزامات اليوم مختلفة من بلد الى آخر » •

بين « ميخايلوف » أن التطور الذى أدى الى حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية كان استمرارا للاتجاه السياسى الذى تقرر فى المؤتمر السابع للشيوعية العالمية الذى انعقد فى عام ١٩٣٥ م • فقد أظهرت أمثلة عديدة — بعد المؤتمر العالمى السابع — أن التنظيم الذى يشرف على كل شىء — مثل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — يعوق التحرك السريع • وقد كان الوضع — مع الجبهة — صعبا على الشيوعيين فى العثور على صيغة سياسية جديدة •

« فكما تعلمون أن الحزب الشيوعى الأمريكى ، قد انفصل عن جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى عام ١٩٤٠ م ، لأن القانون فى أمريكا لا يسمح بوجود تنظيم يكون مركزه الموجه له خارج الولايات المتحدة • ومما لا شك فيه أن قرار الحزب الشيوعى الأمريكى الانفصال عن الجبهة ، لم يكن قرارا خاطئا ، لأنه أمن بهذا الاستمرار فى العمل السياسى •

لم يقل « ميخايلوف » حتى الآن — باستثناء بيانه ، الرأيين الخاطئين — الا القليل مما ورد فى نص القرار المعلق على لوحة الاعلانات حتى انفصال الحزب الشيوعى الأمريكى ، ورد كمثال فى نص قرار الحل • اعتقدنا أن « ميخايلوف » سيحصر نفسه فى تكرار ما جاء فى القرار وحيثياته • وفجأة سمعنا شيئا لم يذكر فى نص القرار :

« أيها الرفقاء •• ليس مثال الحزب الشيوعى الأمريكى الا اشارة الى التعارض بين الواجبات الجديدة ، وصيغة النظم البالى لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • فقد حدث شىء مشابها قبل هذا بكثير ، أمثلة أكثر أهمية ، فأنتم جميعا تعلمون قصة تكوين حزب الاتحاد الاشتراكى « الكاتالونى »

الذى تكون فى عام ١٩٣٦ م من الحزب الاشتراكى و لحزب الشيوعى

وعـدد من المجموعات المـاركسية الأخرى • ولعب هذا الحزب دورا كبيرا فى الحرب الأهلية الأسبانية •

وكان طبيعيـا أن يظهر على السطح — بعد اندماج الحزبين والمجموعات الأخرى فى حزب واحد مباشرة — هذا السؤال : هل ينبغى على الحزب الجديد أن ينضم لمجموعة الشيوعية العالمية الثانية أو الثالثة ؟ ولم يكن الجواب على هذا السؤال سهلا ، لأن تكوين مثل هذا الحزب ، الجديد فى نوعه ، لم فى اطار كلا المجموعتين العالميتين • وهذا مثال واضح على أن قيام جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية لا يتفق مع التطور الجديد » •

ثم تحدث « ميخايلوف » عن رغبة زعماء بعض الأحزاب فى توقف نشاط الجبهة أو حلها •

فانتظرنا بأعصاب مشدودة أن يشير الى مصدر اقتراح الحل ، من أى حزب خرج ! اذ لم يذكر شىء محدد فى هذا الصدد فى قرار الحل • قال « ميخايلوف » :

« اقترح بعض زعماء الأحزاب فى فترة ما بعد انعقاد المؤتمر السابع فى عام ١٩٣٥ م ، خلخلة ترابط الجبهة ، بل اقترحوا حلها مباشرة • وظهر هذا فى مذكرة هيئة زعامة الحزب الشيوعى السويدى » •

ظننا فى أحزاب مختلفة ، ولكن لم يظن أحد منا أن مصدر هذا الاقتراح هو الحزب الشيوعى السويدى ، والأهم من هذا أن مذكرة الحزب الشيوعى السويدى لم تذكر فيما بعد فى الحلقات الدراسية المتعددة التى ناقشنا فيها موضوع « حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » • فهمنا الاشارة وسكتنا فلم نتحدث عنها بشىء ، ولم يتضح لى حتى الآن ، لماذا ذكرت المذكرة السويدية فى أول محاضرة ، ثم ألقى عليها ستار من الصمت فيما بعد • وضح لنا ضرب المثل الأسبانى — وكذلك ذكر مذكرة الحزب الشيوعى السويدى — أننا لن نقتصر فى مناقشتنا موضوع حل الجبهة على أمثلة وحجج قرار الحل •

أصبح هذا واضحا لنا بعد دقائق قليلة ، عندما بدأ « ميخايلوف » يتحدث عن الأحداث التى لم ترد فى قرار الحل :

« وأخيرا أحب أن أذكر لكم أوضح مثال حـدث فى الأسابيع الأخيرة ، يرينا بوضوح ، كيف تعثر نشاط الأحزاب الشيوعية فى بعض البلدان نتيجة لارتباطها بجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

« فأنتم قد تتبعتم — بلاشك — باهتمام بالغ ، طلب انضمام الحزب الشيوعى الانجليزى الى حزب العمـــال ، أنتم تعلمون أن هذه المسألة تلعب دورا كبيرا الآن فى الحياة السياسية لحركة العمالية الانجليزية ، فقد قضى قبول الحزب الشيوعى الانجليزى فى حزب العمال على عزلة الشيوعيين الانجليز ، ونتج عن ذلك التحامهم بالجماهير العمالية البريطانية • لقد أيد جزء كبير من حزب العمال انضمام الحزب الشيوعى اليهم ، وبعضهم كان معارضا ، وكانت الحجة الرئيســية للمعارضين أن الحزب الشـــيوعى الانجليزى مرتبط بجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

« نحن لا نشك فى أن حل الجبهة بالنسبة للحزب الشيوعى البريطانى — كما هو بالنسبة لكل الأحزاب الشيوعية الأخرى — تخفيف للعبء الذى كان يعوقهم عن الحركة » •

ثم تناول « ميخايلوف » بعد هذا المثال تحليـــلا تاريخيا عن الاتحادات العالمية داخل الحركات العمالية ، حيث أشار بنوع خاص الى العالمية الأولى . لقد أوضح تاريخ الحركات العمالية ، أن التنظيمات العالمية ضرورية جدا فى بعض مراحل التطور ، ولكن يمكن أن تكون فى فترات أخرى عائقا لتطور الأحزاب العمالية فى بعض البلدان •

كان تكوين العالمية الأولى فى عام ١٨٦٤ م تقدما كبيرا ، وأنجزت واجباتها فى مدى عشر سنوات ، ثم دخلت مرحلة كان فى استطاعة بعض القطاعات فيها أن تتطور فى البلدان التى تتواجد فيها الى حزب عمال قوى ، ولكن احتواءها فى العالمية الأولى كان قيدا ينبغى كسره ، لتتمكن هذه القطاعات من القيام بواجبها •

كذلك تأسيس العالمية الثالثة فى عام ١٩١٩ م • كان احتواء عالميا لكل الثوريين ، الذين يقفون على قاعدة ماركسية فى مجموعات ، وكان ذلك آنذاك حدثا له أهميته فى الحركات العمالية العالمية • واليوم وبعد ٢٤ عاما حيث يوجد فى معظم بلاد العالم أحزاب شيوعية قوية ، وتحتاج الى الاستقلال الذاتى فى كفاحها ، فقد أدت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية دورها ، ولو استمرت مدة أكثر لكانت عائقة لاستمرار تطور الأحزاب الشيوعية •

وفى نفس الوقت حذرنا « ميخايلوف » من الاستهانة بأهمية جبهة

الأحزاب الشيوعية العالمية • أو التقليل من شأنها ، فقد قامت الجبهة بأعمال ضخمة ، وحلها اليوم لا يدل على أن تأسيسها أو نشاطها كله كان خطأ ، بل لأنه تحتم فى الفترة الحالية وجود صيغة جديدة للحركات الشيوعية فى كل البلاد •

ثم أشار « ميخايلوف » أخيرا الى أن الحل ليس الغاء للفكر العالمى الذى ينبغى أن يظل — كما كان — جزءا لا ينفصل فى نضال الأحزاب الشيوعية محل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية سيفتح للأحزاب الشيوعية امكانيات جديدة ، وآفاقا جديدة للقيام بواجباتهم بنجاح فى بلادهم وليقودوا النضال الوطنى ضد الفاشية •

وعندما انتهى التصفيق له • قال « ميخايلوف » انه على استعداد الرد على الأسئلة ، وشرح ما استغلق فهمه •

فطلب الكلمة أحد الشبان الأسبانيين :

« ماذا سيكون وضع منظمة الشباب الشيوعى العالمى ؟ هل ستحل أيضا أو ستستمر فى نشاطها » ؟

فأجاب « ميخايلوف » بسرعة :

« ليس هناك قرار رسمى بحل منظمة الشباب الشيوعى العالمى ، ولكن يمكن للمرء القول بأن نشاطها سوف يتوقف ، فالأسس التى دعت الى حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، هى بطبيعة الحال قائمة بالنسبة لمنظمة الشباب الشيوعى العالمى • ولا أحتاج الى أن أذكر الرفيق الأسبانى بأن منظمة الشباب الضخمة « الشباب الاشتراكى الأسبانى المتحد » ليست شبابا شيوعيا بالمعنى المفهوم من الكلمة ، بل تمثل صيغة جديدة لتنظيم من تنظيمات الشباب •

ولا يجوز طرح احتمال أن تكون فى تيار الحرب ضد الفاشية منظمات شباب جديدة فى البلاد المحتلة ، أو فى بلاد المحور مثل بولندا ، وفرنسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والنمسا ، والمجر ، ورومانيا ، وبلغاريا •• الخ ، وربما أيضا فى ايطاليا ، وألمانيا • منظمات على نمط الشباب الاشتراكى الأسبانى المتحد ، ولكن من المحتمل أن تكون أوسع ، وتوحد بين الشباب التقدمى المناهض للفاشية • ومن هنا سوف يكون الاحتفاظ بمنظمة الشباب الشيوعى العالمى عائقا فى سبيل تحقيق ذلك •• وعلى فكرة ، فان تأسيس لجنة الشباب المناهض للفاشية فى موسكو ، يعتبر فعلا خطوة فى هذا الاتجاه الجديد •

فقال أحد الرفقاء كبار السن :

« أيها الرفيق « ميخايلوف » ماهو مصير مجلة « الشيوعية العالمية » ؟ هل ستتوقف عن الصدور ؟ واذا توقفت فهل ستصدر مجلة عالمية أخرى ؟

أجاب « ميخايلوف » بأن من المسلم به أن مجلة « الشيوعية العالمية » ستتوقف عن الصدور ؛ ولا يستطيع أحد الآن أن يقول بأن مجلة أخرى جديدة ستصدر أم لا ؛ وان كان يعتقد أن ذلك محتمل جدا ، وان صدرت مجلةأخرى ، فسيكون لها طابع مختلف .

وكان رأى « ميخايلوف » صائبا ، فقد ظهر بعد بضعة أسابيع مجلة باللغتين : الروسية والانجليزية باسم « الحرب والطبقة العمالية » . وغير اسمها فيما بعد الى « العصر الجديد » واتسع قسم اللغات الأجنبية فيها ، فهى تصدر اليوم بتسع لغات .

كان السؤال الأخير هو :

« هل توجد أى اشارة الى كيفية تنفيذ قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟ ومتى ننتظر حل مدرستنا ؟

بدأ تنفيذ قرار حل الجبهة مباشرة بعد اعلانه ؛ غير أنه يمكن أن نقدر أن اتمام اجراءات التنفيذ — من الناحية الفنية — سيستغرق بضعة أسابيع . وفى نفس الوقت تتخذ اجراءات حل المدرسة وسوف يستغرق ذلك بضعة أسابيع أيضا ، والدراسة مستمرة حتى ذلك الحين ، حيث يناقش فى هذه الفترة موضوع حل الجبهة وفى نهاية ذلك ستعقد الامتحانات ، أما عمل الدارسين فى المستقبل فلن يتصل بالجبهة ، وانما ستوكل به قيادة الحزب فى بلد الدارس .

* * *

الأيـام الأخيرة فى المدرسـة

استقبل حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية من الدارسين بدرجات مختلفة ، ومن المسلم به أنه لم يوجد أحد كان فى استطاعته أن يتكلم ولو بطريق غير مباشر ضد قرار الحل . ومن ناحية أخرى لم يظهر رد الفعل المتباين بين الدارسين الشباب وكبار السن فى الأيام الأولى بعد الحل .

بدت علامات الحزن على وجوه الرفقاء كبار السن — أثناء محاضرة « ميخايلوف » — الذين كانوا أعضاء فى الحزب أو قياديين سنين عديدة بل منذ عشرات السنين ، فقد كانت الجبهة حتى قبل بضعة أيام أكبر تنظيم ، رأته عيونهم حتى الآن ، ربما يتذكرون فى هذه اللحظة كلمة « ديمتروف » فى قضية حريق مبنى البرلمان الألمانى : « ان القانون الأعلى عند كل شيوعى ، هو برنامج الشيوعية العالمية » ، وأن « أعلى محكمة هى هيئة الرقابة فى جبهة الشيوعية العالمية » ، ويفكرون الآن فى الكلمة الختامية حيث شرح « ديمتروف » أن عجلة التاريخ التى « تحركها الطبقة العاملة تحت زعامة الشيوعية العالمية » لا يمكن أن تتوقف .

« لينين » :

« نقسم لك أيها الرفيق « لينين » ، أننا لن نبخل بشىء من حياتنا فى سبيل تثبيت وتوسيع دائرة اتحاد العمال فى جميع أنحاء العالم ، جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » !

ثم تمحى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية من الوجود بين يوم وليلة .

لم يكن وقع هذه الأحداث علينا — نحن الشباب ، وكنا أكثر من نصف الدارسين — صعبا ، كما كان بالنسبة للرفقاء كبار السن . فقد نشأنا فى عصر لم تعد فيه الشيوعية العالمية تحتل المركز المرموق ، الذى كان لها فى العشرينات . وبدا لنا أن حل الجبهة هو امتداد منطقى للنظريات التى درسناها فى مدرسة الجبهة . وأكثر من هذا ! فقد كان يوجد من بيننا نحن الشباب — وأنا منهم — من يرى ، أن حل الجبهة — من بعض نواحيه — خطوة ايجابية .

عاودت مرارا قراءة فقرة من قرار الحل تحتوى على الاعتراف بأن للأحزاب فى البلاد الأخرى الحق فى أن تسلك الآن طريقا منفردا :

« التباين الواسع فى حزمة التطور التاريخى لكل بلد فى العالم على حدة ، والطبائع المختلفة ، حتى التعارض فى نظم مجتمعاتهم ، والفرق فى مستوى ودرجة التطور السياسي والاجتماعى ، وأخيرا الفرق فى درجة الوعى والتنظيم العمالى ، كل ذلك يتطلب حلولا مختلفة للمشاكل التى تواجه الطبقة العمالية فى كل بلد على حدة » .

قرأنا نحن الشباب بارتياح أن النصر على الفاشية « يمكن أن يتحقق فى أحسن ظروفه ، وأكثرها فائدة ، عن طريق طلائع الحركه العمالية فى كل بلد على حدة داخل اطار دولتها ، وأن للحزب فى كل بلد على حدة — كما صيغ ذلك فى المؤتمر العالمى السابع — أن يتصرف فى اتخاذ القرار فى كل مسألة من واقع الأوضاع الثابتة ، والعلاقات الخاصة ، التى تتحكم فى كل بلد بذاته » .

بعثت هذه الصيغة الأمل عندى فى أن الحزب الشيوعى الألمانى لن يرتبط بالاتحاد السوفييتى بعد الانتصار على الفاشية ، وأنه يستطيع فى كثير من المسائل أن ينهج طريقه الخاص .

أعتقد أن الرفقاء الشبان فى المجموعات الأخرى فكروا نفس هذا التفكير . لقد كانوا حقا — بصورة مبدئية عامة — متفقين مع النظام فى الاتحاد السوفييتى ، ولكن مما لا شك فيه أنهم كانوا يرغبون فى أن يتصرفوا فى أوطانهم فى بعض الحالات تصرفا مغايرا وبطريقة أحسن .

كما كنت مقتنعا جدا بعدالة القرار — لم أكن أتصور آنذاك ، أن انسلطة فى موسكو سوف تفرض سلطانها بعد سنوات قليلة على الأحزاب الشيوعية بطريقة أشد ، وبأسلوب مباشر — كذلك كنت أشك جدا فى أن الأسباب المعلنة ، كانت هى فقط — ولا شىء غيرها — التى أدت الى حل الجبهة .

كانت مدرسة الجبهة على بعد ٦٠ كيلومترا فقط من « أوفا » ، وكانت ادارة المدرسة على اتصال مستمر يوميا مع ادارة الجبهة فى « أوفا » ؛ لم يكن من الصعب ادراك أن هذا القرار اتخذ بين يوم وليلة ، والا لظهرت اتجاهات غير مباشرة فى المدرسة لتهيئة الجو لتقبل مثل هذا القرار . لم يحدث هذا فلم توجد أى تلميحات نحو هذا الاتجاه ، بل كان العكس ، اذ فى اليوم الذى أذيع فيه القرار فى الراديو ، كان عندنا محاضرة فى المدرسة عن تاريخ الشيوعية العالمية . وقبل هذا بيومين ، تحدث أحد المحاضرين بالتفصيل عن الدور الكبير الذى تقوم به الجبهة فى النضال ضد « هتلر » .

اذن ، كان مؤكدا أن حل الجبهة كان قرارا فجائيا ، ومن المحتمل أن مصدره « ستالين » أملته عليه ظروف سياسة الاتحاد السوفييتى الخارجية ، ولا يتعلق بالتطور التاريخى الا بخيط رفيع .

ذهبت للتجول بعد يومين مع أحد الزملاء ، وكان أحد الأشخاص القلائل الذين شعرت أنهم ليسوا متعصبين للحزب .

« فى الحقيقة أن حل الجبهة حدث مهم ، أليس كذلك » ؟ قالها وغمز لى بعينه .

« نعم ! وخاصة أن القرار جاء مفاجئا ومباغتا » .

أردت بهذه الاجابة ، ارساء قاعدة للاستمرار فى الحديث ، ليس حديث الولاء الكامل للاتجاهات الرسمية .

« هل تعلم يا « ليندين » ! يستطيع المرء أن يتحدث كما يحب ، ولكنى مقتنع أن هذا القرار اذعان لانجلترا وأمريكا ، وربما كان هذا القرار استجابة لرغبة هاتين البلدين » .

من الواضح أنهم خافوا من امكانية وجود مثل هذا الفهم فى أذهان كثير من الدارسين فى هذه الدورة الدراسية . وربما كان هذا هو السبب فى أنهم تركوا الدارسين فى حلقات دراسية متعددة ، يعيدون ويكررون مناقشة موضوع « حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » لمدة أسابيع عديدة .

فقد ناقشوا بالتفصيل كل ما جاء فى قـرار الحل ، وما ذكره « ميخايلوف » فى خطبته من حجج وبراهين ، بطريقة لا يستطيع المرء فى بلد غير الاتحاد السوفييتى أن يتخيلها . فقد شرحت كل جملة منفردة ، وفسرت تفسيرا شاملا ، كذلك شرحت الحوادث التى وقعت فى الاعوام الأخيرة وعللوا : لماذا أصبحت العالمية الأولى قبل سبعين عام — رغم الدور الكبير الذى قامت به — بعد فترة عائقا فى سبيل التطور !

ليس من المألوف خارج العالم السوفييتى — حسب معرفتى — بحث الحوادث السياسية المعاصرة من الوجهة الفلسفية ، ولهذا ينبغى أن أشير هنا الى أننا درسنا فى مدرسة الجبهة قرار الحل — وهو حدث سياسى معاصر — على الأساس الفلسفى للمادية الجدلية .

أكد « ميخايلوف » فى محاضرته على أن النموذج الحالى لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية أصبح لا يناسب حجم نشـاط الأحزاب الشيوعية المعاصر فى البلاد المختلفة ، وترتب على هذا وجود تباين بين النموذج والحجم ، وكان هذا داعيا الى بحث العلاقة الجدلية بين النموذج والحجم .

فالمـادية الجدلية ـ بناء على ذلك ـ تكون وحدة جدلية بين النموذج والحجم ، حيث يقوم الحجم بالدور الأساسى ، وتتفوق عليه عناصر معينة ، أما النموذج فهو بلاشك متعلق بالحجم ، غير أنه ليس سلبيا ، بل يمكن أن يؤثر على الحجم •

وبناء عليه ، فيجب أن يراعى كلاهما ـ الحجم والنموذج ـ فى قضية التطور الى درجة معينة من درجات التطور ، يمكن للحجم فيها أن يواصل تطوره فى اطار النموذج المرسوم دون أن يعاق تطوره ، ولكن اذا وصل الى نقطة يكون فيها النموذج القديم عائقا لاستمرار التطور ، ففى هذه الحالة يظهر التباين بين الاثنين ، ويلح فى ايجاد حل يرفع هذا التباين ، ويتحدد فى النهاية بضرورة طرح النموذج القديم جانبا ، لافساح المجال لاستمرار التطور •

درسنا هذا بالتفصيل على أساس المبادىء الخمسة عشر للجدلية التى أعلنها « لينين » فى بحوثه الفلسفية حيث عـدد فيها ١٦ مبدأ للجدلية ، وشرح العلاقة بين النموذج والحجم فى ١٥ منها •

« صراع الحجم مع النموذج والعكس ، طرح النموذج ، اعادة تكوين الحجم » •

ولأننا نعلم أننا ـ كلما أمكن ذلك ـ لن نقتصر على كلام « لينين » فقط ، فقد استشهدنا أيضا بما قاله « ستالين » :

« ان النموذج الحالى لا يتطابق تمام المطابقة مع الحجم الحالى : فالأول يبقى دائما خلف الثانى ، فالحجم الجديد يكون دائما داخل النموذج القائم بنسبة ثابتة ، وهكذا يسـتمر الصراع بين النموذج القديم والحجم الجديد » •

درسنا حتى الآن العلاقة الجدلية بين النموذج والحجم ، وخاصة فى مثال التباين بين قوى الانتاج ، ومركز العلاقات الانتاجية ، وكيف يكون نموذج العلاقات الانتاجية معارضا لنمو قوى الانتاج المادية فى مراحل معينة من التاريخ فيتحول الى أغلال ويعوق استمرار نمو قوى الانتاج •

ثم طبق المبدأ الجدلى على قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فهنا أيضا ـ هكذا قيل لنا ـ تدور المسألة حول التعارض بين نموذج بال ، وحجم جديد ، ووجب ازالة التعارض بنسف النموذج البالى ، وهو فى هذه الحالة صيغة تنظيم جبهة الأحزاب الشيوعية

العالمية غير أنى لم أقتنع بأن حل الجبهة يمكن أن يضرب كمثال للتغلب على التعارض بين النموذج والحجم •

كان ذلك شكا فقط آنذاك ، ثم عرفت بعد عدة أعوام أن الطابع الجوهرى « للستالينية » ، هو استعمال المـادية الجدلية ، لخدمتها ، لأن « الستالينية » لا تطبق القوانين الجدلية لشرح القضايا داخل المجتمع ، فتتخذ القرار اللازم لهذا التطبيق ، بل استعملتها لتبرير القرارات السياسية ، أو الأحكام بعد صدورها •

اعتقدنا أننا انتهينا من مناقشة مشكلة حل الجبهة من جميع جوانبها ، عندما نشرت « برافدا » فى ٣٠ مايو حديثا صحفيا مع « ستالين » عن الفهم السوفييتى لحل الجبهة ، وعن التأثير الذى سيحدثه هذا القرار مستقبلا على العلاقات الدولية •

أجاب « ستالين » بما يلى :

« قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية قرار صحيح ، وقد جاء فى حينه ، لأنه يسهل تنظيم التقدم الجماعى لكل الشعوب الحرة ضد العدو المشترك « الهتلرية » •

قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية قرار صحيح لأنه :

(أ) يكشف القناع عن أكذوبة أتباع « هتلر » ، التى يزعمون فيها أن موسـكو تحـاول التدخل فى الشئون الداخلية للبلاد الأخرى ، و « بلشفتها » ، فقد ظهر كذبهم الآن •

(ب) يزيح اللثام عن افتراء أعداء الشيوعية داخل الحركات العمالية ، اذ يزعمون أن الأحزاب الشيوعية فى البلاد المختلفة لا تقوم بنشاطها بوحى من المحافظة على مصالح شعوبها ، بل تنفذ أوامر صادرة اليها من الخارج ، والآن بطلت هذه الفرية •

(جـ) ييسر على الوطنيين فى بلاد العالم الحر الاتحاد مع قوى التقدم فى كل بلد ـ متحررين من التبعية الحزبية والعصبية الدينية ـ على قاعدة التحرر الوطنى المشتركة ، لتوسيع دائرة النضال ضد الفاشية •

(د) ييسر جهود الوطنيين فى كل البلاد داخل اتحاد الشعوب الحرة للعمل معا فى جبهة النضال ضد خطر سيطرة الهتلرية على العالم ، ويمهد ـ القرار ـ بذلك الطريق لتنظيم العمل المشترك لكل الشعوب على أسس المساواة •

أعتقد أن كل هذه الأشياء ستؤدى الى استمرار توطيد جبهة اتحاد الحلفـــاء والى وحدة دولية أخرى فى مجال النضـــال ضد جبروت « هتلر » حتى النصر •

وأعتقد أن قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية جاء فى وقته المناسب تماما ، لأن من الضرورى ، الآن بالذات ــ حيث الحيوانات الفاشية المتوحشة تجند آخر قواها ــ تنظيم كل الشعوب الحرة للزحف الجماعى ، حتى يقضى قضاء تاما على هذه الحيوانات المتوحشة ، وتحرر الشعوب من الاضطهاد الفاشى » ••

ج • ستالين

٢٨ مايو سنة ١٩٤٣ م •

على الرغم من أن هذه التصريحات لم تأت بجديد ، فقد نوقشت فى سلسلة من الحلقات الدراسية ، ولم تدر المناقشة فى هذه المرة حول قرار رئاسة اللجنة العليا ، بل حول تصريحات « ستالين » •

مضى الآن ثلاثة أسابيع على حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ونحن نناقش هذا الموضوع ، ونعيد ونكرر حتى قتلناه بحثا • وأخيرا جاء اليوم الذى كنا ننتظره •

فقد أعلن فى اجتماع عام لكل الدارسين فى مدرسة الجبهة ما يلى :

« انتهت الدراسة الآن ، وعلى كل الرفقاء فى كل المجموعات أن يستعدوا للامتحان الذى سيعقد فى وقت قريب » •

ولأول مرة فى مدرسة الجبهة يكون « وقتنا حرا » نتصرف فيه كيف نشاء ، وان كنا قد تلقينا قائمة موضوعات الامتحان ، ويجب علينا مذاكرتها ، الا أننا كنا أحرار فى تنظيم أوقات التحصيل ، كل حسبما يريد ، لقد تعودت فى المدرسة على حياة ، ليس فيها دقيقة فراغ ، ولهذا بدت أسابيع الاستعداد للامتحان ــ وهى فى نفس الوقت الأســابيع الأخيرة فى المدرسة ــ قمة الحرية ؛ فقد كان لنا الحق فى الدراسة فى الهواء الطلق ، حيث كنا فى أيام يونيو الدافئة الجميلة •

وأخيرا حان موعد الامتحان فى منتصف يونيو سنة ١٩٤٣ • وعقد الامتحان يوميا فى مجموعات مختلفة ، وكان دور مجموعتنا الألمــانية فى المقدمــة •

جلس على المنضدة فى حجرة الحلقات الدراسية ، المحاضرون ومشرفو الحلقات الدراسية فى المجموعة الألمــانية : « باول فانديل » (كلاسنير) و « برنارد كونين » و « لينى برج » (رينج) ومعهم

« ميخايلوف » كذلك محاضر أو محاضران من المجموعتين الأخريين اللتين تتحدثان اللغة الألمانية .

نودى على الدارسين واحدا بعد الآخر ، وكان على كل دارس أن يتقدم الى المنضدة ويسحب ورقة من أوراق كتبت عليها أسئلة الامتحان ، وفى كل ورقة أربعة أو خمسة أسئلة . أحدها من محيط الموضوعات التى ناقشناها فى المدرسة .

١ ــ الفلسفة (المادية التاريخية الجدلية) الاقتصاد السياسى أو أسئلة أخرى عن « الماركسية ــ اللينينية » .

٢ ــ تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ، وبالتالى تاريخ جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .

٣ ــ تاريخ الحركة العمالية الألمانية ، وبالتالى أسئلة واقعية عن النضال المعاصر ضد الفاشية .

٤ ــ سياسة عامة (فى الدرجة الأولى : الفاشية والوضع فى ألمانيا الهتلرية) أسئلة سياسية جوهرية عن الكفاح ضد « هتلر » (مثلا : شرح الأيديولوجية النازية ، والاستراتيجية والتكتيك ، والجبهة المتحدة ، والجبهة الشعبية) .

لم يكن الامتحان بالغ الصعوبة ، ولكن ربما كان لحن الجبهة تأثير عليه ، غير أنه يتضح منه أيضا ، كم مادة درسناها فى أحد عشر شهرا وهى فترة قصيرة نسبيا .

سار الامتحان فى مجموعتنا دون حدوث أى مشاكل عرضية كبيرة . لم يحدث شيئا سوى أن « أوتو » ارتبك فى تحديد الفرق بين الجبهة المتحدة والجبهة الشعبية ، وبين الحكومة العمالية ، وحكومة العمال والفلاحين . ولكن لم يغضب « ميخايلوف » من خلطه بين المؤسسات .

انتهى الامتحان بعد ما يقرب من ٨ ساعات ، ولأول مرة بعد عام تقريبا ، لا يكون عندنا شىء نعمله ، وبدأ الرفقاء قضاء وقت فراغ كبير . والآن ! ينتظر كل الدارسين شيئا هو :

الاشارة بحل مدرسة الجبهة نهائيا ، والاستدعاء للعمل السياسى التالى .

* * *

الاستدعاء الخاص الى « أوفـــا »

حدث شيء — فى هذه الأيام ، التى هى أيام اجازة غير عادية — لم أكن أتوقع امكانية حدوثه قبل بضعة أسابيع :

تقوم المدرسة برحلة جماعية غدا • سوف نستمتع بالشمس ، والسباحة فى نهـــر (Bjelaja)

كانت هذه أول مرة — باستثناء ثلاثة أماكن عمل — يسمح لنا فيها بمغادرة دائرة المدرسة •

استلقينا على الشاطىء ، وسبحنا ، وأخذنا حمامات شمس طمعا فى أن تكتسب بشرتنا اللون الأسمر : وكنا سعداء بقضاء يوم رائع •

ظل يوم (Bjelaja) عالقا بذاكرتى لأسباب أخرى ، فقد كنت مستلقيا مع أحد الأصدقاء فى ركن يبعد قليلا عن المجموعة ، فرأينا فجأة احدى الفلاحات متجهة نحونا ، وقبل أن نفكر فيما ينبغى عمله ، لو بدأت بمخاطبتنا كانت قد وصلت عندنا •

— « أنتم طلبة فى المدرسة • أليس كذلك » ؟ ،

فتمتمنا بكلمات غير مفهومة :

« نعم ! طبعا • ليس مسموحا لكم بأن تقولوا شيئا ، وأنا أعرف بالضبط أنكم من هذه المدرسة الأجنبية • فالسلطة السوفييتية غبية ، اذ تعطيكم أيها الأجانب كل شيء ، ونحن نموت جوعا • على كل فلن يستفيد هؤلاء الكبار من هذا شيئا ، اذ عندما تتخرجون من هذه المدرسة لن تنفعوهم » •

نظر كلانا اليها ، ولكنا لم نتكلم كلمة واحدة • كانت الفلاحة رابطة الجأش ، ولكنها استمرت فى طريقها بخطوات سريعة • أيقظت كلماتها الشجاعة وعيى فأدركت أنى عشت أحد عشر شهرا فى عالم آخر ، مفصولا تماما عن حياة الناس « العاديين » •

واليوم ! يبدو لى بوضوح أن العزلة التامة لطبقة القياديين فى الحزب هى عنصر أساسى فى النظام « الستالينى » • هذه العزلة تفسر بعض الظواهر وأسلوب التفكير والتصرف لدى القياديين « الستاليين » •

وبعد ذلك بأيام قليلة كنت مستلقيا فى حرم المدرسة على الحشيش ، أقرأ كتابا ، واذا بى أسمع شخصا ينادى على :

ـ « ليندين ... ليندين » .

ـ « ماذا حدث » ؟

ـ « أنت مطلوب عند المدير حالا » .

اتجهت الى حجرة المدير وأنا مضطرب ، هل ستعاد عملية « النقد والنقد الذاتى » ؟ هل أخبر زميلى عن الحديث القصير الذى تبادلناه عن حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟ ولكنه تجاوز فى حديثه عن هذا الموضوع الحد الذى وقفت عنده .

عندما دخلت الى « ميخايلوف » كان فى الحجرة سبعة رفقاء ، وكانوا من مجموعات مختلفة ، قال « ميخايلوف » : « يجب علينا انتظار اثنين آخرين » .

ثم وصل الاثنان بعد بضعة دقائق ، لم يوح الجو بأن هناك عملية « النقد والنقد الذاتى » .

جلس بجانب « ميخايلوف » قيادى ، لم أره فى المدرسة قط . بدأ « ميخايلوف » دون لف ودوران :

« أيها الرفقاء ! لقد استدعيناكم الى هنا ، لأنه قد وقع عليكم الاختيار لعمل خاص . فقد أصبح من الضرورى ـ نتيجة لحل الجبهة ـ تنظيم قلم محفوظاتها ، لأنه يوجد فى حالة غير طبيعية بعد نقله من موسكو . لقد اخترناكم لهذا العمل لأننا نرى أن عندكم القدرة السياسية للقيام بتنظيم « الأرشيف » بالاضافة الى أن كل واحد منكم يتقن اللغات الأجنبية التى هى ضرورية لهذا العمل .

لست بحاجة الى أن أشير الى عدم جواز التحدث بهذا الخبر مع أحد . وسوف تسافرون سويا مع هذا الرفيق الى « أوفا » وأظن أن السفر سيكون غدا » .

وفعلا ! وصلت فى صباح اليوم التالى عربة نقل ، أخذتنا نحن العشرة الدارسين والقيادى الذى جاء من « أوفا » واثنتين للآلة الكاتبة . وظل الباقون فى المدرسة . ولم أعلم فى هذه اللحظة عما اذا كنت سأرى المدرسة مرة ثانية ! وماذا يحدث لنا بعد الانتهاء من هذه المهمة !

عندما انطلقت السيارة ، ألقيت نظرة على المدرسة التى تعلمت فيها أشياء مهمة ، ولكن عشت فيها أيضا أوقاتا عصيبة أثناء عملية « النقد والنقد الذاتى » . لقد غيرونى هناك فى مدى أحد عشر شهرا

من طالب وعضو منظمة شباب مرح اجتماعى الى قيادى حزبى ، يزن الكلمات ويقلبها على كل الوجوه قبل النطق بها .

توارت المدرسة عن مدى البصر بعد دقائق معدودات . نحن مقبلون الآن على القيام بعمل ، أنتظره بأعصاب مشدودة ، فقد كان أول تكليف لى من الحزب .

توقفنا على الطريق بعد ساعة تقريبا ، فلم نستطع مواصلة السفر ، لأنه كان هناك حاجز على الطريق ، ووقف خلفه خمسون شخصا تقريبا ، ينظرون الى سيارتنا نظرات يائسة . سأل مرافقنا بلهجة حادة :

ـ « ماذا حدث » ؟

فاتجه شاب نحو سيارتنا :

« بناء على أمر رسمى صادر من جمهورية « بشكير » يجب على كل سيارة الوقوف هنا ، لتأخذ بعض المستدعين للخدمة العسكرية لتوصيلهم الى أماكن استدعائهم ، اذ يجب استغلال كل مكان فى كل سيارة ، وبناء عليه فنطلب منكم أن تأخذوا بعضا منهم معكم فى سيارتكم اللورى » .

لم يجب مرافقنا ، بل أبرز له الأوراق الرسمية التى معه . وفى غضون ذلك كان المسافرون قد أحاطونا ، ملوحين ببطاقاتهم الشخصية ، بالضبط كما فعلت قبل عام ، عندما كنت مسافرا الى « كازاخستان » . قرأ الرجل الذى كان يرتدى سترة من الجلد الأوراق التى أعطاها له مرافقنا ، وبعد أن اطلع على كل ما فيها قال شبه معتذر :

ـ « حسنا ! طبعا هذا شىء آخر » .

ثم صاح بلهجة حادة قاطعة :

« ارجعوا الى الوراء ! أفسحوا الطريق لهذه السيارة » !

فرفع الحاجز ، ومررنا ، ثم ألقينا نظرة الى الوراء على المنتظرين ، وخيبة الأمل ظاهرة على وجوههم .

تكررت هذه العملية فى الطريق الى « أوفا » أربع أو خمس مرات . وفى كل مرة يقدم المرافق أوراقه ، فيفتح لنا الطريق بسرعة . انتابنى شعور غريب لأنى تذكرت ما حدث لى بالذات قبل عام واحد .

لم نتجه فى « أوفا » الى مبنى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، بل وقفت العربة أمام فندق (Baschkirija) ذلك الفندق الذى أقام فيه زعماء الجبهة ، ولكنهم كانوا قد غادروا « أوفا » .

كان فندق (Baschkirija) أجمل فندق فى المدينة — جديد ، وكان بالنسبة لوضع « بشكير » مؤثثا بأثاث خرافى — .

قادنا مرافقنا الى داخل الفندق ، وكانت الحجرات محجوزة لنا . وبكل هدوء ، هكذا كما لو كان هو نفسه مدير الفندق ، فتح لنا باب المطعم ودعانا الى الدخول ثم قال : « ستتناولون هنا طعامكم » وفى الحال دخلت فتاة ترتدى ملابس نظيفة ، وبدأت فى اعداد المائدة .

ومما لا شك فيه أن طعامنا فى المدرسة كان ممتازا ، ولكن ما قدم لنا الآن يفوق كل ما كنا نتخيله .

وبعد الطعام قدمت السجائر الفاخرة ، فجلسنا ندخن ، ونستمتع بهذه اللحظات الجميلة . ثم قال المرافق :

« والآن ! نستطيع أن نتحدث فى العمل ، اذا لم يكن عند الرفقاء مانع ، سوف تنقلكم العربة كل يوم بعد الافطار الى « أرشيف » جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وهو فى مبنى احدى المدارس فى الطابق الرابع ومما لا شك فيه أن عليه حراسة مشددة ، فلا نستطيع الدخول أو الخروج الا مع بعض كمجموعة ولن يسمح لكم بالدخول — حتى ولو كنتم مجموعة — الا بهذه البطاقة الشخصية » .

ثم أعطى كل واحد منا بطاقة شخصية ، كانت قد أعدت له بالصورة من قبل .

استمر مرافقنا يتحدث بلهجة ودية جدا :

« أعتقد أن من الأفضل أن نذهب الآن الى « الأرشيف » ، اذ أستطيع أن أشرح لكم العمل هناك على نحو أفضل ، وسوف تبدأون العمل غدا صباحا . هل يوجد أى سؤال » ؟

وطبيعى أنه كان هناك أشياء كثيرة مهمة ، ولكن كان من الطبيعى أيضا ، أنه لم يسأل أحد فيها .

ثم قال : « اذن ، فكل شىء الآن على ما يرام » .

وقفت ثلاث عربات « صالون » على استعداد ، ركبنا فيها ، واخترقنا المدينة حتى وقفنا أمام مبنى مدرسة جديدة ، مكون من أربعة طوابق . وعندما وصلنا الى الطابق الرابع ، اتجه الينا الحارس فأبرزنا له البطاقات الشخصية ، ثم دخلنا الى قاعة ضخمة ، حيث رأينا عددا كبيرا من الزكائب .

كان طول الزكيبة مترا ونصف تقريبا ، وعرضها أكثر من متر .

وبدا من شكلها أنها مملوءة « بدوسيهات » ومحافظ أوراق • وبعد لحظة تبينا أن هناك حجرتين أخريين مملوءتين بزكائب مماثلة •

قادنا المرافق الى أحد الأركان ثم قال :

« عندما اضطرت الجبهة الى الهجرة من موسكو ؛ لم يكن هناك وقت كاف لتنظيم « الأرشيف » ، فعبئت « دوسيهات » ومحافظ أوراق الأحزاب الشيوعية فى البلاد المختلفة فى الزكائب بدون ترتيب • وهى مرقمة ترقيما احتياطيا على نحو يمكننا من معرفة ، أين توجد وثائق كل حزب على حدة ، الاأنه ليس معروفا بالضبط ، ماذا فى كل زكيبة على حدة ؟ والمطلوب منكم فتح الزكائب وبحث محتوياتها ، ثم ترقيم المحافظ طبقا لمحتوياتها ، وعمل فهرست لمحتويات كل زكيبة ، ثم كتابته على الآلة الكاتبة • وبهذه الطريقة يمكن معرفة محتويات « الأرشيف » فاذا احتجنا الى وثيقة ما فيما بعد ، فنستطيع بواسطة الفهرست الذى أعددتموه ، معرفة مكان المطلوب » •

نظرت بارتياب الى الزكائب المرصوصة فى الصالة الضخمة ، فأيقنت أن أمامنا عمل ضخم جدا •

« لقد فكرنا فى عمل « أرشيف » عام مفهرس حسب البلاد ، فكل واحد منكم سيأخذ مستندات الحزب الذى سيوكل به • والتقسيم الذى أقترحه هو كما يلى :

أخرج المرافق ورقة من جيبه ، ثم قرأ أسماءنا الحركية ، وكذلك البلاد وأرقام الزكائب التى سيقوم بترتيب وثائقها :

« الرفيق « ليندين » ! الحزب الشيوعى الأمريكى ؛ ونصف وثائق الحزب الشيوعى البريطانى » •

سررت بهذا العمل ، لأن من المؤكد أننى سأستفيد من قراءة وثائق الأحزاب الشيوعية • هل فكر المرافق فى هذا ؟

« أحب أن أشير هنا بوضوح الى أنه لا يجوز لأحد يعمل فى هذا العمل ، اذاعة أى شىء عنه ، كذلك أحب أن ألفت انتباهكم الى أن كل ورقة — حتى ولو كانت لا أهمية لها اطلاقا — يجب أن تعاد الى الزكيبة التى أخرجت منها • وغنى عن البيان أنه لا يجوز أيضا اخراج أى ورقة — حتى ولوكانت قصاصة — من هذه الصالة ••

وأخيرا أحب أن أشير لكم الى أن العمل ليس قراءة ما فى

« الأرشيف » من وثائق ، فليس لأحد منكم الحق فى قراءة أى شىء من وثائق هذا الأرشيف » •

لقد تربيت على النظام القاسى ، الذى يلزمنا بتنفيذ التعليمات حرفيا ، ولكن كيف يستطيع المرء أن يرتب وثائق ويعمل لها فهارس ، دون أن يقرأها ! ولكنى منعت نفسى من التلفظ بأى شىء •

* * *

عملنا فى أرشيف الجبهة

ذهبنا بنشاط فى اليوم التالى الى عملنا فى « أرشيف » الجبهة ، فبدأ كل واحد منا يجمع زكائب « حزبه » • وبعد القاء نظرة سريعة على محتويات الزكيبة الأولى ، تبين لى أن العمل أصعب مما كنت أتصوره ، فكل شىء فيها مختلط ومتشابك •

هل كان الوضع عند الآخرين أيضا بهذه الصورة ؟ ، وعلى الرغم من التعليمات المشددة فقد أطلعنا بعضنا على ما فى الحقائب ، واتفق الجميع على أن زكائبى كانت أسوأ الجميع ، فقد اعترفوا بأن سوء التنظيم والفوضى فى وثائق الحزب الشيوعى الأمريكى يحتل المركز الأول •

لم يوجد فى زكائب رفقائى الأمريكيين أعداد من ربط الوثائق التى ألقى بها دون أن تثبت فى « دوسيهات » فحسب ، بل وجد أيضا قصاصات من الاعلانات السينمائية ، وأعداد من النيويورك تايمز ، وأقلام رصاص مكسرة ، و « كراكيب » أخرى ليس لها صلة بأرشيف اطلاقا •

علق أحد الرفقاء على ذلك ضاحكا :

« من المؤكد أن الرفقاء الأمريكيين لم يكن عندهم وقت اطلاقا ، عندما أرسلوا « أرشيفهم » الى موسكو » !

لم تكن هذه الفوضى عند الحزب البريطانى ، فقد كانت جميع الوثائق — على الأقل — مجموعة فى محافظ أوراق • فهى وان لم يكتب شىء على المحافظ يبين ما فيها من أوراق الا أنها كانت تبدو منظمة نسبيا • غير أنه لا وجه للمقارنة بينها وبين « أرشيف » وثائق الحزب الشيوعى الألمانى ، فلا يمكن أن يتصور هذا عند البريطانيين اطلاقا ، اذ لم ينظم الحزب الألمانى وثائقه فى محافظ فقط ، بل كتبوا ورقة على كل محفظة مكتوبا عليها محتوياتها •

اندهشنا جدا عندما رأينا محافظ أوراق عند الحزب الشيوعى الألمانى فيها منشورات عام ١٩٣٢ م ، وقد نظم كل منشور فى المحفظة طبقا لأحرف هجاء قيادة الحى الذى طبعته ، وعلى كل منشور ورقة كتب عليها دوافع اصداره ، ومتى صدر ؟

قال أحدنا للرفيق الذى كان مكلفا بتنظيم وثائق الحزب الشيوعى الألمانى :

« أنت محظوظ ، فليس عندك ما تعمله • ولكنه رد عليه بأنه يعترف بأن حقائبه منظمة جدا ، ولكن مجموعها يبلغ ثلاثة أضعاف وثائق الأحزاب الأخرى • فلم يرسل أى حزب الى موسكو وثائق بهذا العدد ، مثلما أرسل الحزب الشيوعى الألمانى •

عدت الى زكائب رفقائنا الأمريكيين ، وحاولت بكل جهدى تنظيم محتوياتها المتشابكة ، المختلطة وثائقها مع مقصات مكسرة ، وجرائد قديمة ، ومساحات « أستيكة لمحو الكتابة » وأقلام حبر • ولكن كان لهذه الفوضى جانب ايجابى ، فقد كانت فرصة — على أقل تقدير — للقيام بعمل مثل هذا بمفردى • كان على أن أخرج جميع الوثائق وأرتبها حسب السنة والموضوعات الرئيسية ، ثم أعيدها ثانية الى محافظ الأوراق •

كان مرافقنا يلاحظنا ، وعندما مر عندى ، ورأى وضعى السيء الذى وضعنى فيه الرفقاء الأمريكيين ، هز رأسه متأسفا وقال :

« لن تنتهى من هذا العمل أبدا ، أرى أنه ينبغى علينا أن نقتصر فى هذه الحالة على عمل فهرست عام فقط ، والشيء المهم أن تعاد الوثائق الى المحافظ بسرعة مع شيء قليل من التنظيم ، فاذا لم يتضح لك الموضوع بسرعة فتستطيع أن تكتب « منوعات » على ظهر المحفظة ، لأننا لابد أن ننتهى من هذا العمل فى غضون أيام قليلة » •

اتبعت نصيحته ، فانتهيت فى غضون ساعات قليلة من ترتيب بعض الوثائق •

اشتغلت بنشاط عدة ساعات ، فوضعت وثائق الحزب فى المحافظ مرتبة حسب عناوينها كلما أمكن ذلك ، ثم كتبت على المحافظ عنوان ما فيها وأعدتها الى الزكيبة • وبهذه الطريقة نفذت الأوامر المشددة بعدم قراءة ما فى الوثائق •

وفجأة اكتشفت بين الجرائد الأمريكية المختلفة جريدة تسمى

« المناضل » ، ظننتها جريدة شعبية ، فهممت بوضعها فى الزكيبة دون اهتمام ، ولكنى تنبهت فجأة : فقد رأيت على الصفحة الأولى رسم المنجل والمطرقة ، وتحته : « شعار البوليتاريا يوحدكم فى كل البلاد » •

هل هى جريدة حزبية ؟ ولكنهم لم يذكروا لنا شيئا عن هذه الجريدة عندما ناقشنا موضوع الحزب الأمريكى فى دراسة مادة : تاريخ جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟

ورغم أنى كنت أعلم أنى محتاج الى كل دقيقة فى هذه اللحظة ، فقد تصفحتها بسرعة — كان فيها شىء عن النضال الطبقى ، وعن التضامن العالمى ، وعن تحرير الزنوج •

ثم تأكدت أنها جريدة حزبية عندما وجدت على الصفحة الثالثة عنوانا بالخط العريض :

استسلام « راكوفسكى »

بقلم « ليون تروتسكى »

لمّ أصدق عينى ! مقال لـ« تروتسكى » ! فهذه بالتأكيد جريدة « تروتسكية » • لو انفجرت عبوة ديناميت كبيرة بجانبى ، ما اهتززت لها أكثر مما اهتززت أثناء العثور على هذه الجريدة •

التفت بسرعة يمينا وشمالا ، فلم أجد أحدا بالقرب منى ، فقرأت مقال « تروتسكى » بسرعة • لا يستطيع أحد أن يتصور ، كم كنت مضطربا وأنا أقرأه !

« راكوفسكى » ؟ قابلنى هذا الاسم مصادفة فى مؤلفات « لينين » وعرفت أنه صدر حكم ضده فى أوائل عام ١٩٣٨ م •

وطبيعى أنى كنت أشك منذ زمن طويل ، فى أن ضحايا التطهير فى الفترة من ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م كانوا مناهضين للثورة ، ولكن لم يكن هذا الشك سوى افتراض غريزى ، فما كنت أستطيع التأكد من هذا عن طريق المعلومات • والآن ! قرأت عن مصير هؤلاء الثوريين ، عن نضالهم السياسى فى معارضة المجموعة « الستالينية » (كان هذا الرسم وحده نوعا جديدا بالنسبة لى) • ولكن لم أفهم بعد ، لماذا يتحدث « تروتسكى » عن استسلام !

ثم قرأت أن « راكوفسكى » اعترف بخطئه ورجع الى الحزب الشيوعى السوفييتى • وطبقا لما فهمته من المقال — حسب مقدرتى فى معرفة اللغة الانجليزية — فقد صور ذلك على أنه « نقد ذاتى » واعتراف بصحة الحزب • كان اكتشافا أن أجد وصف هذا الحدث بالاستسلام • ألم يكن « تروتسكى » على حق فى هذه الحالة ؟ ألم يكن هذا حقيقة استسلام ؟

لقد فقدت ربع ساعة من وقتى فى قراءة الجريدة الأمريكية « التروتسكية » ، ويجب على أن أزيد من نشاطى ، لأستعيد ما فاتنى عمله فى هذا الوقت المفقود •

اشتغلت بأسرع مما كنت أشتغل قبل قراءة هذه الجريدة ، ولكنى فى نفس الوقت كنت آمل أن يقع فى يدى عدد آخر من جريدة « المناضل » ثم وجدت فى نفس الزكيبة العدد الثانى ، فقرأت بسرعة المقالات المهمة فيه ، ثم أصبحت طريقتى : العمل بدون فترات راحة ، وعند العثور على عددمن جريدة « المناضل » ، أقضى معها بعض دقائق • من المحتمل أنى لست الوحيد فى المجموعة الذى قرأ شيئا مما نشره « تروتسكى » من « أرشيف » الجبهة •

وشرح هذا الاهتمام بسيط جدا : فالجريدة الشعبية التى وقعت فى يدى أثناء تنظيم أرشيف الجبهة (كذلك مقتطفات الصحف الشعبية التى قرأناها فى مدرسة الجبهة) ليست ذات أهمية جوهرية عندنا ، فهى تتناول أشياء بعيدة عن حياتنا وعن مشاكلنا ، وتستخدم مفاهيم لا تفيدنا بشىء ولهذا فهى لا تثير لدينا اهتماما ، ولكن على العكس من ذلك ما كتبه «التروتسكيون » بلغتنا واصطلاحاتنا ، فهم يخوضون فى أشياء كنت أشك فيها دائما ، ولهذا لا يستغرب اضطرابى أثناء قراءتها فى « الأرشيف » واهتمامى للحصول على المزيد مما كتبه « التروتسكيون » فيهـا •

أندم كل يوم ، بل كل ساعة على أنى مررت مرورا سريعا على كل شىء ، فقد كان هناك أشياء كثيرة كنت أحب أن أقرأها — محضر جلسات اللجنة المركزية ، محاورات الاتجاهات المتعارضة ، أسباب طرد زعماء من الحزب — ولكن لم يكن هناك أى امكانية لذلك ، فقد وجب على فتح الزكائب بسرعة « شتخانوف » لحقيقية ، ووضع الوثائق فى محافظ ،

وكتابة العنـــاوين عليهـا مثل « نقابات » ، « متنوعات » أو حزب ١٩٢١ ــ ١٩٢٣ م • وكانت الأوامر ترد الينا كل يوم : لا بالتزام الدقة فى الفهرسة ، بل بالاسراع فى العمل ، لأنهم يريدون أن ننتهى منه فى أقصر مدة ممكنة ، فالمطلوب أن يكتب فى القائمة محتويات المحفظة بشكل عام أما تفصيل ما فيها فليس ضروريا •

وفى اليوم الخامس ، عندما أردت وضع مجموعة من الوثائق فى محفظة ، سقط منها حوالى ٢٤ صفحة بخط اليد ، وفجأة رأيت توقيعا بخط « ستالين » • فأنا أعرف توقيعه لأنه نشر مرات عديدة ، ولكن لم يقع فى يدى حتى الآن وثائق مكتوبة بخط « ستالين » • نظرت فيها بدقة واهتمام •

يدور موضوعها حول باب من كتاب « أنا لويزا سترونج »(١) حيث وصفت فيه حديثا مع « ستالين » • كان الباب مكتوبا بالانجليزية ، ومصحوبا بخطاب من مدير احدى دور النشر السوفييتية • وذكر فى هذا الخطاب أن الكاتبة الأمريكية « أنا لويزا سترونج » تناولت فى كتابها ــ وبالتفصيل ــ حديثا مع « ستالين » ، وترغب الدار أن توجه سؤالا الى « ستالين » قبل الطبع ، عما اذا كان نشر هذا الباب ممكنا كما هو ، أم لابد من ذكر ملاحظات أو تغييرات له • ورأت الدار ألا ترسل النص الأصلى الانجليزى فقط ، بل أرسلت معه أيضا ترجمة دقيقة له باللغة الروسية •

وتاريخ هذا الخطاب يرجع ــ اذا لم تخنى ذاكرتى ــ الى عام ١٩٣١ م •

وكان جواب « ستالين » على خطاب دار النشر يتكون من سطور بسيطة هذا نصه :

« ليس عندى شىء ضد النص ، ويمكن نشر الباب كما هو ، أو مع تغيير أيضا ، يؤخذ فيه رأى المؤلف » •

ج • ستالين •

---

(١) قبض على « أنا لويزا سترونج » فى فبراير ١٩٤٩ بتهمة التجسس ، ثم طردت بعد ذلك من الاتحاد السوفييتى • وفى ٥ مارس ١٩٥٥ نشرت برافدا أن القبض عليها كان ظلما ، وقد برئت من التهمة التى وجهت اليها • ونسبت مسئولية اتهامها زورا الى قيادة وزارة أمن الدولة آنذاك ، وعلى رأسها « بيريـا » و « أباكوف » •

لقد كان بالنسبة لى آنذاك — فى عام ١٩٤٣ حيث كانت عبادة « ستالين » تقارب قمتها — شعورا غريبا ، أن يقع فى يدى خطاب من « ستالين » وغنى عن البيان أنى تصفحت الباب ، ولا زلت أذكر كيف بدا لى مستغربا ألا توجد فيه أجوبة معدة ومكتوبة ، وأن يسمح لكاتبة أجنبية أن تكون حرة فى تصوير الحديث مع « ستالين » • لو حدث هذا فى عام ١٩٤٣ ما كان ممكنا بهذه الطريقة •

وبعد أربعة عشر يوما ، كان الجزء الأكبر من الأرشيف — وان كان ذلك سطحيا — قد تم فهرسته • ثم أخبرنا بأننا بعد الانتهاء من هذا الأرشيف سننتقل الى آخر •

وقف مرافقنا مرة أخرى أمامنا ومعه قائمة :

« الرفيق « ليندين » وثائق أرشيف ألبانيا ، وبورما و « جافا »(١) •

وانتنى الشجاعة لاعتراض خفيف :

« ولكنى لا أعرف اللغة الألبانية ، ولا البورمية ••• وماذا يتحدث سكان « جافا » ؟

فأشار المرافق اشارة رفض :

« لا أعرفها أنا أيضا ، ولكن سوف تحاول بقدر الامكان ، وستصل الى المطلوب » •

وتلقى الآخرون مهمات مماثلة ؛ فكنا فى موقف غريب ، فهرسة « أرشيف » بدون أن نعرف لغته ، والشىء الوحيد الذى كنا نهتدى به الى حد ما ، هو التواريخ وأسماء زعماء الأحزاب التى نعرفها من دراسة مادة تاريخ جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، أو اسم مدينة ، أو اشارة الى الأحداث التى عرفناها أيضا فى المدرسة ، وبين الحين والآخر تظهر بعض الوثائق المكتوبة باللغة الانجليزية أو اللغة الروسية ، وعن طريق هذه الاشارات كنا نحاول الوصول الى حل هذه الألغاز لفهرستها • كان هذا العمل أشبه بحل ألغاز الكلمات المتقاطعة •

انتهينا من العمل قبل نهاية الأسبوع الثالث على الرغم من الصعوبات التى واجهتنا •

---

(١) جزيرة من جزر أندونيسيا • م • شامة •

شكرنا المرافق ، فانتظرنا بأعصاب مشدودة ، ماذا يحدث لنا بعد ذلك •

« أيها الرفقاء •• لقد رأينا أنكم لابد أن تمكثوا هنا فى « أوفا » بضعة أيام أخرى ، لتستريحوا قليلا ، وستظلون فى فندق (Baschkirija) كما أنتم الآن ، وتحصلون على كل ما يلزمكم منه • وعندما ننتهى من ترتيب بعض الاجراءات سوف تسافرون معى الى موسكو ، حيث تقدمون أنفسكم لأجهزة أحزابكم » •

* * *

نظرة جانبية فى الحياة « العادية »

الى موسكو ! فرحت فرحا لا حد له ، لأنى سوف أتمكن — بعد هذه الأحداث المهولة التى شاهدتها فى عامين — من العودة الى العاصمة • ولكن لا زال عندنا الآن بضعة أيام أخر •

لقد تغيرت « أوفا » فى هذا العام مرة أخرى ، فالقياديون أصحاب المسئوليات العليا قد عادوا مع من يعملون معهم الى موسكو ، ولم يبق هنا فى يوليو سنة ١٩٤٣ م من العاملين فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية الا « الطبقة المتوسطة » و « الطبقة العمالية » • وكلهم ينتظرون بفارغ الصبر السماح لهم بالعودة الى موسكو •

قادنى طريقى الأول الى صديقتى « ايريكا » التى كانت تسكن مع « الطبقة العمالية فى الجبهة » فى شارع « ستالين » رقم ١٠١ • لقد قاست كثيرا فى العام السابق ، غير أنها لم تقع فى مأزق « النقد والنقد الذاتى » ، بل قابلتها صعوبات توصف فى الاتحاد السوفييتى بأنها صعوبات « عادية » •

لم تفرح فرحا كبيرا بالخطوات التى قطعتها فى سلم حياتى فى السنة الأخيرة ، بل قالت ساخرة : « حسنا •• فأنت الآن من طبقة الأذكياء » • فأدركت بوضوح أننى بعدت عن تفكير الانسان « العادى » •

ثم وقفت فى اليوم التالى بعد الظهر على تناقض أكثر من هذا فى « الجانب الآخر للحياة » فقد اكتشفت فى طريق العودة الى فندق (Baschkirija) شيئا ، بدا لى أنه سوق ، فاقتربت منه لأستطلع أمره •

منظر مرعب ! عدد كبير من الناس يرتدون خرقا باليـة على

أجسامهم ، جاءوا الى هذا المكان ليستبدلوا حصتهم الضئيلة من التموين بأشياء أخرى ، فهذه امرأة عجوز لا تستطيع الوقوف على رجليها من شدة الجوع ، تمسك فى يديها المرتعشتين قطعة من الخبز الأسمر للمبادلة ، وهذا رجل كبير السن يعرض قطعة من السكر ويريد بدلها خبزا ، وثالث يقدم سيجارتين للبيع ، ويطلب ثمنا للواحدة « ٦ روبل » .

فقر لا حد له ، رأيته فى سوق « أوفا » فأيقظ وعيى بسرعة البرق ، كيف سارت حياتى سيرا حسنا فى كل الأوقات الماضية ! كدت فى مدى شهور قليلة أن أنسى نسيانا تاما أنه يوجد مثل هذا الفقر ، فقد خبت ذكرى أيام « كاراجندا » حيث كنت أعيش فى هذا الوضع .

غادرت الفندق بعد غذاء دسم ، حافل بأنواع الطعام المختلفة ، فرأيت رجلا كبير السن يرتدى ثياب ممزقة ، ويبدو عليه علامات الفقر المدقع .

وضعت يدى فى جيبى لأبحث عن بعض النقود لأعطيها له ، وفى هذه اللحظة بادرنى بالكلام :

« نهارك سعيد يا « ليندين » فأصابنى الفزع : من أين يعلم هذا الرجل المجهول اسمى الحركى ؟

ثم اقتربت اليه مدققا النظر فيه ، لقد كان أحد الزملاء فى مجموعتنا ، الذى قص علينا ذات يوم بعد الظهر أخبار نشاطه السرى فى فرنسا أثناء الاحتلال ، ثم اختفى من المدرسة فجأة دون أى تفسير لذلك . لقد مضى على ذلك الآن أكثر من نصف عام . وتدل هيئته على أنه قاسى كثيرا فى هذه الأيام . قال لى :

« هل معك قطعة خبز أتقوت بها » ؟

« لا .. ليس معى الآن ، ولكن اذا عدت من طعام العشاء ، فسوف أحضر لك شيئا ، سوف أحاول أن أحضر خبزا قدر استطاعتى ، حسب الحالة دون أن يلحظ أحد ، لأنه ليس مسموحا لنا أخذ خبز معنا .. ولكن لا تؤاخذنى .. فأستطيع أن أحضر شيئا آخر غير الخبز » .

أومأ ايماءة رفض :

« ولكن يا « ليندين » لست فى حاجة الى الاعتذار ، فالآخرون لا يعطونى شيئا اطلاقا حتى الخبز لا أراه منهم ، حتى لا يتكلمون معى ، ومعظمهم يزور عنى اذا رآنى فى الشارع . فلو استطعت أن تعطينى

قطعة خبز ، فلن أنساها لك مدى الحياة ، وسأظل شاكرا لك هذا الجميل الى الأبد » •

وفى كل مساء كنت آخذ معى خبزا أيضا فأدسه فى جيبه فى مكان بعيد عن أعين الناس • فكان يشكرنى فى كل مرة ، ولكنه كان قليل الكلام جدا • ثم علمت أنه لم يتلق مساعدة من أى مكان بعد طرده من مدرسة الحزب • هذا الرفيق الذى قام بأعمال خطيرة — تنفيذا لأوامر الحزب — فى سنوات عديدة ، حكم عليه الآن « بالاعدام » وترك لمصيره ، فهو مثل لقسوة « الستالينية » ، تطبقه على كل انسان لم تعد تستفيد منه •

ولكن أكثر من هذا ! فعلى الرغم مما رأيته فى « أوفا » كنت بعيدا عن ادانة النظام ككل ، اذ لا زلت أعتقد — فى ذلك الوقت — أن الأمر يتعلق بأخطاء فردية ، وظواهر خلفها ماضى الاتحاد السوفييتى ، لم أزل متعمقا فى الأيديولوجية « الستالينية » تعمقا كبيرا بحيث لا تستطيع المناظر التى رأيتها فى « أوفا » ولا التباين الشاسع بين حياة القياديين فى الحزب وبين حياة الانسان « العادى » الذى رأيته واضحا الآن أمام عينى ، فى « أوفا » أن يهز هذه العقيدة عندى •

كانت أحداث أسابيع يوليو سنة ١٩٤٣ التى عشتها فى « أوفا » مثيرة ، فقد سقط موسولينى ، فايطاليا الآن على أبواب الخروج من الحرب ، والكل يأمل أن تنتهى الحرب سريعا •

باغتتنا أحداث يوم ٢١ يوليو فقد نشرت « برافدا » على الصفحة الثالثة بيان اللجنة الوطنية « ألمانيا الحرة » الى القوات المسلحة الألمانية والى الشعب الألمانى • ثم علمنا أن أسرى الحرب من الضباط والجنود الألمانيين اجتمعوا باللاجئين الألمانيين بالقرب من موسكو فى يومى ١٢ ، ١٣ يوليو ، وكونوا فى هذا الاجتماع اللجنة الوطنية « ألمانيا الحرة » • وكان على رأس الأعضاء المنتخبين « ايريش فاينرت » — وكنت أعرفه — ووكيلاه : الرائد « كارل هينس » والملازم « هاينريش جراف فون أين زيديل » •

قرأت البيان باهتمام ، فتأكدت أنه كان « أوسع » من بيان مؤتمر غرب ألمانيا المزعوم ، الذى درسناه دراسة تفصيلية فى مدرسة الجبهة • فقد ذكر فى هذا البيان أن :

« فراى هير فوم شتاين » و « ارتست موريتس آرنت » و « كلاوس فيتس » و « يورك » نماذج مثالية • ولم يكن فيه أى اشارة الى مطالب

اشتراكية ، ولم يذكر اطلاقا أى شىء عن وجود الشيوعيين الألمانيين .

لم نصل الى هذا الحد عندما كنا نناقش « المذهبية » فى مدرسة الجبهة ، ونهاجم كل من يتصرف تصرفا مذهبيا . لم يكن من الصعب ادراك أنه لم يكن تكتيكا جديدا فقط فقد ظهر نتيجة حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، واذاعة بيان للجنة الوطنية بل أن الأمر يتعلق بتغيير فى الرؤية الاستراتيجية .

ظهر لى هذا أيضا بنوع خاص من مطالب البيان ، فقد صيغت صياغة « واسعة » بقدر ما يمكن — ربما كان الهدف من ذلك مخاطبة كل القوى المناهضة لهتلر . — حصر البيان الأهداف — بعد سقوط ألمانيا الهتلرية — فى تكوين سلطة ديمقراطية قوية (وهذه لا تتفق فى شىء مع الديمقراطية الهزيلة التى كانت فى الجمهورية الفايمرية) ، والغاء كل القوانين التى تدعو الى العصبية الجنسية والعداوة ضد الشعوب الأخرى ، واعادة — وتوسيع — الحقوق السياسية والتأمينات الاجتماعية ، وحرية الاقتصاد والتجارة (بما فيها تأمين الملكية المكتسبة عن « طريق مشروع ») ، والافراج فورا عن ضحايا النظام الهتلرى وتعويضهم ، وأخيرا محاكمة عادلة — لا هوادة فيها — لمجرمى الحرب ، والمسئولين عنها ، ولكن سيكون العفو عن كل أتباع « هتلر » الذين يتبرأون من أعماله قبل فوات الآوان ، وينفصلون عنه ، وينضمون الى حركة ألمانيا الحرة .

لا زال تصورى لهذه اللجنة الوطنية ناقصا ، اذ لم أعرف بعد مغزى اختيار الألوان : الأسود — الأبيض — الأحمر . رمزا لها . فلم يفهم ذلك من أسلوب « برافدا » .

ولكن كان من الطبيعى أن أهتم جدا باللجنة الوطنية « ألمانيا الحرة » ولم أرغب فى شىء سوى العمل فيها .

وتحققت أمنيتى ! فعندما كنت أتمنى ذلك فى يوم ٢١ يوليو ، وأرى أن تحقيقه ممكن ، دعينا لاجتماع فى نفس اليوم بعد الظهر ، وقيل لنا :

« ستسافر مساء اليوم الى موسكو » .

خلفت ورائى « كاراجندا » ، ومدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، والعمل فى أرشيف الجبهة ، وانتظرت بأعصاب مشدودة ما يأتى به الغد .

وصلنا فى اليوم التالى الى موسكو .

* * *